مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

التوجيه البلاغي لدحض الشبهات المفتريات على الأنبياء في القرآن الكريم
(أبو الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) نموذجاً)

د. أحمد عبد المجيد محمد خليفة
الكلية الجامعية بمكة ــ جامعة أم القرى

أبحاث

التوجيه البلاغي لدحض الشبهات المفتريات على الأنبياء في القرآن الكريم (أبو الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) نموذجاً)

د. أحمد عبد المجيد محمد خليفة

الكلية الجامعية بمكة ـ جامعة أم القرى

قال الإمام محمد عبده : لم يرزأ الإسلام بأعظم مما ابتدعه المنتسبون إليه , وما أحدثه الغلاة من المفتريات عليه , فذلك مما جلب الفساد على عقول المسلمين , وأساء ظنون غيرهم فيما بني عليه الدين . وقد فشت للكذب فاشية على الدين المحمدي في قرونه الأولى حتى عرف ذلك في عهد الصحابة (رضي الله عنهم) , بل عهد الكذب على النبي(ﷺ) في حياته.. إلا أن عموم البلوى بالأكاذيب حق على الناس بلاؤه في دولة الأمويين ، فكثر الناقلون ، وقل الصادقون ، وامتنع كثير من أجلّة الصحابة عن الحديث إلا لمن يثقون بحفظه خوفا من التحريف فيما يؤخذ عنهم .. وروى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه قال : " لم تر أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث " ([1]) ثم اتسع شر الافتراء , وتفاقم خطب الاختلاف وامتد بامتدادات الزمان , ومن راجع مقدمة الإمام مسلم , علم ما لحقه من التعب والعناء في تصنيف صحيحه ، واطلع على ما أدخله الدخلاء في الدين وليس منه في شيء , ولم يخف على أهل النظر في التاريخ أن الدين الإسلامي غشى أبصار العالم بملامح القوة , وعلا رءوس الأمم بسلطان السطوة , وفاض في الناس فيضان السيول المنحدرة , ولاحت لهم فيه رغبات , وتمثلت لهم منه مرهبات , وقامت لأولى الألباب عليه آيات بينات , فكان الداخلون في الدين على هذه الأقسام :

ـ قوم اعتقدوا به إذعانا لحاجته ، واستضاءة بنوره ، وأولئك الصادقون .

ـ وقوم من مِلل مختلفة انتحلوا الانتساب إليه , فتدثروا بدثاره , لكنهم لم يستشعروا بشعاره , لبسوا الإسلام على ظواهر أحوالهم , إلا أنه لم يمس أعشار قلوبهم , فهم كانوا على أديانهم في بواطنهم , ويضارعون المسلمين في ظواهرهم , وقد قال الله في قوم من أشباههم :(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ...)[سورة الحجرات ، آية ١٤] . فمن هؤلاء :

من كان يبالغ في الرياء حتى يظن الناس أنه من الأتقياء , فإذا أحس من قوم ثقة بقوله، أخذ يروي لهم أحاديث دينه القديم ، مسندا لها إلى النبي (ﷺ) ، أو بعض أصحابه , ولهذا

ترى جميع الإسرائيليات ، وما حوته شروح التوراة ، قد نقل إلى الكتب الإسلامية على أنه أحاديث نبوية (٢) .

ومنهم من تعمد وضع الأحاديث التي لو رسخت معانيها في العقول أفسدت الأخلاق ، وحملت على التهاون بالأعمال الشرعية ، وفترت الهمة على الانتصار للحق , كالأحاديث الدالة على انقضاء عمر الإسلام " والعياذ بالله" ، أو المطمعة في عفو الله مع الانحراف عن شرعه , أو الحاملة على التسليم للقدر بترك العقل فيما يصلح الدين والدنيا .

كل ذلك يضعه الواضعون قصدا لإفساد المسلمين ، وتحويلهم عن أصول دينهم . ليختل نظامهم ويضعف حولهم.

ومن الكاذبين قوم ظنون أن التزيد في الأخبار ، والإكثار من القول , يرفع من شأن الدين, فهذروا بما شاءوا , يبتغون بذلك الأجر والثواب , ولن ينالهم إلا الوزر والعقاب , وهم الذين قال فيهم مسلم في صحيحه : " ما رأيت الصالحين في شيء أكذب منهم في الحديث" . ويريد بالصالحين أولئك الذين يطيلون سبالهم ، ويوسعون سربالهم ، ويطأطئون رءوسهم , ويخفتون من أصواتهم , ويغدون ويروحون إلى المساجد بأشباحهم , وهم أبعد الناس عنها بأرواحهم , يحركون بالذكر شفاههم ويلحقون بها في الحركة سبحهم .. ولكنهم كما قال أمير المؤمنين على بن أبي طالب : جعلوا الدين من أقفال البصيرة ، ومغاليق العقل, فهم أغرار مرحومون يسيئون ، ويحسبون أنهم يحسنون ...

فهؤلاء يخيل لهم الظلم عدلا , والغدر فضلا , فيرون أن نسبة ما يظنون إلى أصحاب النبي مما يزيد في فضلهم , ويعلى في النفوس منزلتهم , فيصح فيهم ما قيل : عدو عاقل خير من محب جاهل (٣) .

ولما عرض (رحمه الله) لعلم الحديث في اللائحة التي وضعها لإصلاح التعليم , وما يجب إتباعه قال: " فن الحديث على شرط أن يؤخذ مفسراً للقرآن مبينا له , مع إطراح ما يخالف نصه , من الأحاديث الضعيفة , والاجتهاد لإرجاع الأحاديث الصحيحة إليه إن كان ظاهرها يوهم المخالفة " (٤) .

وقال في خطاب لأحد إخوانه ينصحه فيه بمداومة قراءة القرآن ، وتفهم أوامره ونواهيه، ومواعظه وعبره , كما كان يتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحي : " وحاذر النظر في وجوه التفاسير إلا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مراد العرب منه, أو ارتباط مفرد بآخر خفي عليك متصله , ثم اذهب إلى ما يشخصك القرآن إليه , واحمل بنفسك على ما يحمل عليه , وضم إلى ذلك مطالعة السيرة النبوية ، واقفا عند الصحيح المعقول , حاجزاً عينيك عن الضعيف والمبذول " (٥).

وقال طيب الله ثراه , في تفسير القرآن : وفهم الدين : لا يُتبع إلا الدليل القاطع لأن هذا من باب العقائد , وهو مبني على اليقين الذي لا يمكن الأخذ فيه بالظن والوهم (٦).

***

لعل هذه المقدمة تكون توطئة جيدة قبل الولوج في قصة ادعاء الكذب على أبي الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) ومحاولة تفنيدها . ودرئها عنه .

فلقد تحدث القرآن الكريم في جُلّ آياته عن أنبيائه ورسله ، وحكى قصصهم وأخبارهم مع أممهم الأوّلين ، وصور لنا ما كانوا عليه من طهارة كاملة ، ونقاء شامل ، وإيمان كامل ، وَصَلَ إلى أعلى درجاته ، وأسمى غاياته .

بيد أن هناك بعض آيات الذكر الحكيم تبدو لأول وهلة ، وكأنها تتجافى مع عصمة الأنبياء ، ولكن إذا ما أمعنا التفكير ، والتدبر المدعومين بالعلم ، والمعرفة التامة باللغة العربية ، وأساليبها ، ومعانيها ، ومراميها ،وأبرزنا الجوانب الجمالية:البيانية ، والبلاغية للآيات ،وجمعنا الآيات في الموضوع الواحد ، مع مراعاة السياق ، مع معرفة أسباب نزولها ... ونظرنا إليها بنفس صافية من الشوائب - وفهمناها على الوجه الصحيح - زادتنا إيمانا ويقينا، وأيقنّا بأنهم (صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين) مبرئون من العيوب ، معصومون من الذنوب ، بعيدون عن الشرور ، والآثام ، والخطايا .

فقد ألصقت بالأنبياء تُهَمٌ ، وافتراءات ، وشبهات كثيرة ، هم أبعد الناس عنها ، كما جنح بعض المفسرين في تفسيراتهم لبعض الآيات جنوحا كبيرًا عن روح التفسير الصحيح ، وذهبوا فيها مذاهب شتى ، معتمدين على بعض الإسرائيليات حينًا ، والقصص والروايات المختلقة حينا آخر ، والأحاديث الضعيفة والموضوعة أحيانا أخرى ،التي قصد بها الزنادقة، واليهود ، وأعداء الدين ، التشكيك في أنبياء الله ، الذين اختارهم ، وطهرهم ، واصطفاهم ، فألصقوا - دون قصد - بهم تهم هم أبعد الناس عنها ، وأكاذيب ، وافتراءات ، ما أنزل الله بها من سلطان .

وكان أبو الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) من أكثر الأنبياء الذين أصابهم قسط وافرٌ منها بعد نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم).

فكان لابد من تبرئة ساحته من هذه الافتراء ت ، والأكاذيب ، فالأنبياء هم القدوة الحسنة . والمثل العليا الكاملة أمام الأمم ، والشعوب ، إذ أن من عقيدة المسلم ،ثقته بأن الأنبياء قوم حفظ الله خواطرهم ، و بواطنهم من منكر منهيٌ عنه ، ونزههم عن الفواحش والمنكرات التي بعثوا لتزكية الناس منها ، لئلا يكونوا قدوة سيئة- جاشاهم الله - مفسدين للأخلاق والآداب ، وحجة للسفهاء على انتهاك حرمات الشرائع . فهم في رعاية الله وحفظه منذ أن كانوا نورًا في ظهور آبائهم ، ونطفًا في بطون أمهاتهم .

***

وأول هذه الافتراءات القصة المتداولة في أكثر كتب التفاسير، وموجز ها يدور حول الافتراء على نبي الله إبراهيم (عليه السلام) بوقوعه في دائرة الكذب ثلاث مرات ، والبعض قال أربع كذبات " وهي :

الأولى - في قوله : (" فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ) [سورة الصافات ، آية ٨٩])" .

الثانية- في قوله: (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ [سورة الأنبياء آية ٦٣] .

الثالثة - قوله عن سارة زوجه "هذه أختي" .

الكذبة الرابعة - قوله على الكواكب : (هَذَا رَبِّي [سورة الأنعام ،آية:٧٦]) " .

خامسا - الإجابة عن سؤال : هل كان نبي الله إبراهيم (عليه السلام)في قول الله تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ...(٢٦٠).) شاكا في قدرة الله (عز وجل) على إحيائه الموتى ، فطلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ؟ وهل يمكن أن يكون قلبُ إبراهيم (عليه السلام)غير مطمئن بالايمان؟

سادسا - الإجابة عن سؤال : هل كان والد خليل الله إبراهيم (عليه السلام) كافرا ، يصنع الأوثان بيده ويعبدها ؟

وإليك تفنيد لكل هذه الافتراءات :

أولا - ما كان إبراهيم (عليه السلام) كاذبا

في قوله : (فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ)[الصافات ، ٨٩])

فمن البدهي عند عامه المسلمين البسطاء والمثقفين على حد سواء , فضلا عن العلماء المتخصصين في العلوم الإسلامية والشرعية أن أنبياء الله معصومون من الكذب ، منزهون عن ارتكاب الفواحش , وأن وقوعهم فيها أبعد ما يكون من المستحيل ، وإنْ كانوا بشرا ؛ لرعاية الله (سبحانه وتعالى) لهم , منذ اصطفائهم لحمل رسالته ، ودعوتهم لوحدانيته , إذ ليس من المعقول أن يرسل الله رسولاً ، أو نبياً , تدور حوله الشبهات .

فكيف يدرك عقل أن أبا الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) يبدأ رسالته في الدعوة إلى توحيد الله , بأبشع خطيئة عرفتها الإنسانية , وحضت على اجتنابها كل الأديان السماوية , ألا وهي : الكذب . فضلا عن أنها تتعارض مع نصوص القرآن الكريم , والسنة النبوية الصحيحة التي حثت على الصدق، ولو كان فيه هلكة - وقلما هلك - والابتعاد عن الكذب ، وإن كان فيه نجاة - وقلما أنجى .

فالصدق صفة أساسية في الأنبياء والرسل ، فهم جميعا كانوا صادقين ، وأتقياء ، بشهادة رب العالمين، في قرآنه الكريم .

١ـ فقد مدح الله (عز وجل) أبا الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) في محكم كتابه بالصدق ، والتقوى ، والورع ، فقال سبحانه وتعالى في سورة مريم : (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١).

٢ ـ وقال في سورة البقرة : (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)

٣ ـ وقال في سورة الصافات: (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)

وقال المبرد " والإفك : سوء الكذب ، وهو الذي لا يثبت ويضطرب , ومنه انتفكت بهم الأرض"(٧)

٤ ـ وقال من سورة النحل:(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٢٠)

٥ـ ووصفه في سورة التوبة بقوله: " (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) .

فهذه الآيات الكريمة تؤكد وصفه (عليه السلام) بالصدق والمبالغة في خشية الله ، والخشوع له , وبالحلم ، والثبات في أموره كلها .
والأواه : الكثير التأوه والتحسر , وإنما يتأوه إبراهيم من خشية الله ، ويتحسر على المشركين من قومه ، ولا سيما أبيه آزر .

ويطلق (الأواه) على الخاشع الكثير الدعاء والتضرع لله .

وعن ابن عباس فيه روايات منها : أنه المؤمن أو الموقن بلسان الحبشية , و(الحليم) الذي لا يستفزه الغضب ، ولا يبعث به البطش ، ولا يستخفه الجهل , أ وهوى النفس , ومن لوازمه الصبر، والثبات ، والصفح , والتأني في الأمور، واتقاء العجلة في كل من الرغب ، والرهب"(٨) .

فقل لي بربك كيف يمكن لنبي يصفه الله(سبحانه وتعالى) ، ويمدحه بهذه الصفات الكريمة ، ثم يرتكب فاحشة الكذب عن عمد ؟! وكيف صوغ الذين رموه بهذه التهمة البشعة لأنفسهم هذا الصنيع؟!وكيف يثق الناس بعد ذلك بشريعته مع الاعتراف بتعمد كذبه؟!. هل نسوا أو تناسوا أن : " حقيقة عصمة الأنبياء هي نزاهتهم وبعدهم عن ارتكاب

الفواحش والمنكرات التي بعثوا لتزكية الناس منها , لئلا يكونوا قدوة سيئة مفسدة للأخلاق والآداب , وحجة للسفهاء على انتهاك حرمات الشرائع "([1]).

***

١ـ فقد جعله الله(عز وجل) أبا الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) أسوة حسنة لأمة محمد (ﷺ)فقال في سورة الممتحنة : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ (٤) .

٢ ـ بل أمر الله (سبحانه وتعالى) باتباع ملة إبراهيم ، والتأسي به ، في سورة الأنعام، قال تعالى : (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)

كما أن هذه الأقوال الخليلية الثلاثة أو الأربعة ليس فيها من الكذب على الحقيقة شيئاً ألبته ، وإنما هي من المعاريض على نحو ما سيأتي بعد " وإن لكم في المعاريض لمندوحه عن الكذب "كما قال النبي (ﷺ) .

***

فقد أجمع المفسرون في تفسير الآية الكريمة :(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١). إلى أن أبا الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) كان صديقا أي : مبالغا في صدقه , ولم يكذب قط , حتى اتصف بالصدق ، بل كان الصدق علما عليه , ولا عجب في ذلك فهو نبي الله وخليله. والصدق صفة أصيلة ملازمة له ،ولغيره من الأنبياء، بل إن الله (عز وجل) كلما مدح نبيا من أنبيائه مدحه بأنه صديق , أو صادق :

ـ فقال عن إدريس (عليه السلام) في سورة مريم : (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) .

ـ وقال عن إسماعيل (عليه السلام) :(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) [مريم] . فالصدق صفة ملازمة لكل نبي من الأنبياء لابد أن يتصف بها ، لدرجة الكمال، حتى لا يتطرق الشك فيه ، ولو للحظة ، لكي لا يفقد مصداقيته بين الناس , وهي صفة أصيلة تلازمه طوال حياته قبل الرسالة وبعدها .

فقد كان الصدق صفة ملازمة للحبيب محمد (ﷺ)، أتصف بها قبل البعثة ، واشتهر بها بين قومه ورفاقه ، ولقب بها فقالوا :الصادق الأمين" ، وبعد البعثة أطلقوا عليه : " الصادق المصدوق " بل كادت هذه الصفة أن تطغى على اسمه الحقيقي قبل البعثة .

فقد طهر الله (عز وجل) أنبياءه وعصمهم من الفواحش ، ولاسيما الكذب منذ أن اختارهم لرسالته , لأن الكذب قبيح , لكونه كذبا ، فلا يحسن على وجه من الوجوه ، وغير جائز

على الأنبياء ؛ لارتفاع الوثوق بذلك عن قولهم , فقد طهر الله سبحانه وتعالى نفوس أنبيائه عن الأخلاق الذميمة ، وارتكاب الفواحش , إذ أنهم بعثوا لمنع الخلق من القبائح والنقائص, فلو أنهم منعوا الناس عنها ، ثم اقدموا على أقبح أنواعها ، وأفحش أقسامها ؛ لدخلوا تحت قوله تعالى : " (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢)كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) [الصف] .

- وأيضا - أن الله عيَّر اليهود بقوله : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) [البقرة: ٤٤] ، وما يكون عيبا في حق اليهود ، فكيف ينسب إلى الرسول المؤيد بالمعجزات؟!

- وقد ضرب الحبيب محمد(ﷺ)مثالاً رائعا في الصدق حتى شهد له الصَّدِيْقُ والعدوُّ بذلك, وهاهو النضر بن الحارث يذكر بعض أوصاف الرسول(ﷺ)لقومه فيقول" هو أصدقكم حديثا"(١٠). ويقول أبو سفيان لما سأله هرقل عن محمد (ﷺ): هل كنتم تتهمونه بالكذب , قبل أن يقول ما قال؟ أجاب : لا . فقال هرقل : أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله (١١) ، وهذا القول من هرقل يبين أهمية الصدق بالنسبة للأنبياء ، ورسل الله , إذ أن الصدق صفة ملازمة لهم في تبليغ الدعوة , ومن كذب على الناس جاز أن يكذب على الله , ومن التزم الصدق مع البشر فهو صادق حتما مع الله سبحانه وتعالى .

- وقد أخبرتنا السيدة عائشة (أم المؤمنين) عن النبي (ﷺ) فقالت: ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله (ﷺ)من الكذب ، ما أطلع على أحد من ذلك بشيء فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه أحدث توبة"(١٢).

- وقد سئل الحبيب محمد (ﷺ): أيكون المؤمن جبانا ؟ قال : نعم , قيل له أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال: نعم . قيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟ قال : لا . " (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) [النحل] (١٣)

- والصدق فضيلة أمر الإسلام بها ، وحض الناس على التحلي بها ، فقال تعالى مخاطبا المؤمنين في سورة التوبة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)

- وقال تعالى: في سورة الأحزاب:(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤)

- ودعا الرسول (ﷺ)إلى الالتزام به ، فقال:" إن الصدق يهدي إلى البر , وإن البر يهدي إلى الجنة , وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا , وإن الكذب يهدي إلى الفجور , وإن الفجور يهدي إلى النار , وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا"(١٤)

- والصدق صفة تنفع صاحبها وتنجيه من سخط الله ، وتدخله في جنته ، قال تعالى : (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) [المائدة].

ويقول عز وجل من سورة يونس: (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩)

فإني والله لأعجب أشد العجب من أنمتنا الأفاضل من أن ينسبوا الكذب إلى أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام, النبي الأعلى للرسول محمد (ﷺ), وهم بذلك قد تورطوا تورطا شديدا , حين نقلوا الكثير من الإسرائيليات المدسوسة في مصنفاتهم ، استناداً إلى الرخصة التي منحها لهم رسول الله (ﷺ)بقوله : " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم , وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم , وإلهنا وإلهكم واحد"([٩]) .

***

والرأي الذي نميل إليه , ونؤمن به أن سيدنا ابراهيم (عليه السلام) لم يقع في مستنقع الكذب إطلاقا، لا في قوله تعالى على لسان أبي الأنبياء عليه السلام :(فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)، ولا في غيرها .

ونرفض ما قاله الطبري ، ومن نهج نهجه ، بأن أبا الأنبياء عليه السلام وقع في دائرة الكذب في قوله : " إني سقيم ، ..... " لأن قولهم هذا :

١- يتعارض مع ما جاء في القران الكريم من وصف لأبي الأنبياء (عليه السلام) بالصدق .

٢- كما أن قولهم هذا يكسر حاجز عصمة الأنبياء , ويجعلهم في موضع الشبهات ، وهم فوق ذلك , وهذا لا يليق برسول ، ولا نبي اختصه الله ورعاه منذ كان ماءً في صلب أبيه , أن يكون موضع شبهة في قليل أو كثير , حتى لا يتسرب الشك إلى المنهج الإلهي الذي يدعوا إليه , وصفة الصدق هي من أهم خصائص الأنبياء.

ويقول الطبرسي صاحب " مجمع البيان في تفسير القرآن" :" إن الكذب قبيح ولا يجوز ذلك على الأنبياء , لأنه يرفع الثقة بقولهم , جل أمناء الله تعالى وأصفياءه عن ذلك"([١٠])

***

- فقد وردت هذه المقولة الخليلية في القرءان الكريم بأسلوبه المعجز الذي نزل على قوم هم أساطين البيان, وملوك الكلام , فجاء يتحداهم في أخص شئونهم , وأبين صفاتهم , لتكون الحجة ألزم ، والمعجزة به أتم .

ـ بل كانت هذه المقولة الخليلية ـ وما على شاكلتها ـ دليلا حيًا على إعجاز القرءان الكريم ـ يضاف إلى أوجه إعجازه الأخرى ـ وعلى جودة نظمه , وقوة تأليفه , وسمو بلاغته وفصاحته ، إلى الحد الذي لم يستطع عنده أحد من البشر أن يحاكيه ، أو أن يمني نفس ذلك.

فحينما نتأمل مقولة نبي الله إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) :(فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) ، لا نجد ألبته كذبًا كما ظن البعض (سامحهم الله) . *أين كيف توجه قوله هذا ؟*

يمكن توجيه قوله , إلى وجوهٍ عدةٍ تنأى به عن الوقوع في شبهة أبشع خطيئة عرفتها الإنسانية ورفضتها , وشددت عليها كل الأديان السماوية ,وهي جريمة الكذب ، وهل كان خروج أبينا آدم (عليه السلام) من الجنة إلا من جراء كذب إبليس اللعين عليه في أمر الشجرة ؟!

نذكر من هذه الوجوه التي استخدمها أبو الأنبياء (عليه السلام) في منهج دعوته الآتي :

أولا ـ استخدم نبي الله إبراهيم(عليه السلام) في هذه الآية الكريمة *"التورية"* معتذرا ـ بصورة لطيفة ـ عن رفضه لقبول دعوة قومه ، والإعراض عن حضوره الاحتفال معهم بعيدهم ، الذي تستحل فيه المنكرات , والفواحش , وعبادة الأوثان , وما كان يحدث من أفاعين شركهم في هذا الاحتفال يغضب الله عز وجل ، وفي نفس الوقت ينتهز فرصة غيابهم ليكيد أصنامهم كما أقسم : {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ} (٥٧) سورة الأنبياء ياء] .

والتورية : هي من أروع الفنون البلاغية البديعية التي جاءت في أسلوب القرآن الكريم ، واستخدمها رسول الله (ﷺ) في بعض أحاديثه ، ووردت في كلام العرب البلغاء.

وهي في أبسط تعريف لها : أن يذكر المتكلم لفظا مفردا لـ معنيان : حقيقيان ، أو حقيقة ومجاز ، أحدهما قريب ، ودلالة اللفظ عليه ظاهرة ، والآخر بعيد ، ودلالة اللفظ عليه خفية ، فيريد المتكلم المعنى البعيد ، ويوري عنه بالمعنى القريب ، فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد المعنى القريب ، وليس كذلك ، لأجل هذا يسمي هذا النوع إيهاما (١٧).

ـ وبالتورية نستطيع أن نتخلص مما يخشى عواقبه ، ونناى بأنفسنا بعيدا عن فاحشة الكذب، أو الوقوع في دائرته ، ونصل من خلالها إلى فهم كثير من نصوص القرآن الكريم المتشابهة ، وكلام سيد المرسلين ، وغيرهما من الكلام البليغ ، فهما صحيحاً .

ـ فالمعنى القريب في قوله تعالى : *(إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)* ، والذي ورى به أبو الأنبياء إبراهيم (عليه السلام)) هو *المرض* ،أي : إني مريض ولا يمكن الخروج معكم إلى عيدكم ، وكان قبل أن يقول ذلك أوْهَمَهُمْ بالنظر، والتفكر، والتأمل في النجوم ـ وكان إبراهيم (عليه السلام) عندهم صادقا ، لم يجربوا عليه كذبا ـ فاعتقدوا أن نجمه ـ بحكم

علمهم بالنجوم - يدل على سقمه، ومرضه (وهو الطاعون الذي كان أكثر مرضهم به) فخافوا من العدوى - كما هو الحال اليوم في جميع الأمم - ففروا منه ، وتفرقوا عنه - بهذا الفهم للمعنى القريب الذي تبادر لأول وهله إلى تفكيرهم - وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد، ففعل بالأصنام ما فعل .

- أما المعنى البعيد الذي قصده (عليه السلام) فهو يحتمل وجوها عده نذكر منها:

الوجه الأول - فهو لا يريد - هنا - بقوله *: إنّي سَقِيمٌ"* من السقم المرضَ العضويَّ ، وإنما أراد السقمَ النفسيَّ : فهو سقيم القلب لسقم تفكيرهم ، وإصرارهم على عبادة الأوثان ، التي لا تضر ولا تنفع . سقيم من كفرهم جهارا بالله الواحد الأحد، الخليق بالعبادة ، سقيم لعدم سماعهم دعوته إلى وحدانيته (عز وجل) . سقيم سقمَ اليأس من هدايتهم ، رغم حرصه الشديد على الابتعاد بهم عن المعتقد الخاطئ، وعبادة الأوثان .

الوجه الثاني - *(فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)* أي : مشارف للسقم فيما يستقبل ،(وفيه مجاز مرسل) وقد قالوا : إن كل من كان الموت لاحقه ، فهو به سقيم ، وإن لم يكن به حين قالها سقم ظاهر ، وقد قال جل وعز : " (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) [الزمر]".

- فقد سئل الزمخشري : " كيف جاز له (يعني إبراهيم عليه السلام) أن يكذب؟؟

- فقال : " قد جوزه بعض الناس في المكيدة في الحرب ، والتقية , وإرضاء الزوج , والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين , والصحيح : أن الكذب حرام إلا إذا عرَّض وورّى ، والذي قاله إبراهيم عليه السلام : معراض في الكلام ، ولقد نوى به أن من كان في عنقه الموت سقيم , ومنه المثل: " كفى بالسلامه داءً " .

- وقول لبيد:

فدعوت ربّي بالسَّلامَةِ جَاهِدِاً ليصحَّنِي فإذا السَّلامَةُ دَاءُ ([١٨])

- وقد مات رجل فجأةً فالتف عليه الناس , وقالوا : مات وهو صحيح . فقال أعرابي : أصحيح مَن الموتُ في عنقه؟! وقيل: أراد إني سقيم النفس لكفركم"([١٩])

وقد ورى إبراهيم (عليه السلام) بذلك هروبا من مشاهدة منكراتهم ، وزورهم ، وأفانين شركهم .

الوجه الثالث : يحتمل أن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) أتي بكلامه علي سبيل التشبيه ، أي أنه سقيم القلب فقد شبه حزنه وغمه ومعاناته النفسية من سوء تفكيرهم وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة - بالمرض ، أو كما قال القاسمي في تفسيره :" أراد أنه مستعد للموت استعداد المريض ، وفيها استعارة أو مجاز مرسل"([٢٠])

الوجه الرابع : (فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) أي : كما قال البيضاوي في أنوار التنزيل : خارج المزاج عن الاعتدال خروجاً قل من يخلو منه([٢١]) . من تفكيرهم ، وإصرارهم على الكفر ، وهم فهموا أنه سقيم مريض بالطاعون فهربوا منه وتركوه وحيداً مع أصنامهم ، ففعل فيها ما فعل .

وعلى هذه الأوجه لا يكون هناك كذب البتة في قول إبراهيم عليه السلام (فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ) وإنما كان هذا القول دليلاً على الإعجاز النظمي ، و البياني في القران الكريم ، وشاهداً على روعة أساليبه ، وطرق أدائه المختلفة ، التي حفلت بها اللغة العربية ، وما حوته من كنوز ونفائس لا تقف عند حد .

***

الافتراء الثاني وتوجيهه

(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ...)

قال الأمام الطبري في تفسيره لقوله تعالى من سورة الأنبياء: (قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبراهيم .." قال : الطبري لقد " أتوا إبراهيم , فلما أتوا به قالوا له :(أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا) من الكسر بها يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ قال أهل التأويل".

معنى قوله " بل فعله كبيرهم هذا " إنما هو : بل فعله كبيرهم هو الذي كسرهم , ... وغير مستحيل أن يكون الله (تعالى ذكره) أذِنَ لخليلِهِ في ذلك , ليقرع قومه به , ويحتج به عليهم, ويعرفهم موضع خطأهم , وسوء نظرهم لأنفسهم , كما قال مؤذن يوسف لإخوته: (أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) ، ولم يكونوا سرقوا شيئاً"([٢٢])

- وقال الزمخشري: حكي أنه قيل : فعله كبيرهم هذا " غضب أن تُعبد معه , هذه الصغار ، وهو أكبر منها , وقرأ محمد بن السميقع : فَعَلَهُ كبيرهم يعني : فلعَلَهُ . أي فلعَلَّ الفاعل كبيرهم ([٢٣])

- وقد أشار إلى هذا القول أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ) من قبل فقال : " قال بعض الناس : بل فَعَلَهُ كبيرهم (مشددة)" يريد :(فلعلَّه) كبيرهم (٢٤).

- " وقال بعض الناس : بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون , فجعل فعل الكبير مسنداً إليه إن كانوا ينطقون وهم لا ينطقون (٢٥).

- ثم أشار إلى مذهب العوام فقال : " والمذهب الذي عليه العوام : بل فعله ، كما قال يوسف " أيتها العير إنكم لسارقون " ولم يسرقوا , وقد أيد الله أنبياءه بأكثر من هذا(٢٦) .

***

وبعد .. فإن كلام أبي الأنبياء في قوله " بل فعله كبيرهم هذا " جاء على عدة أوجه ، ذكر بعضها علماؤنا الأوائل ، ونحاول نحن هنا إجمالها وتبسيطها ، وعرضها مشفوعة برأينا , فنذكر من هذه الأوجه : الوجه الأول : استخدامه (عليه الصلاة والسلام) في حديثه الأسلوب الحكيم : بغرض التهكم والسخرية من قومه ، وما يعبدونه من أصنام وتماثيل، لا تضر ولا تنفع , وبهدف لفت أنظارهم إلى حقيقة معبوداتهم الفاسدة.

* *والأسلوب الحكيم* : هو أحد الفنون البلاغية التي أطلق عليها ـ أيضا ـ أبو عمر عثمان الجاحظ (ت٢٥٥هـ) اسم "اللغز في الجواب " ، وهو:" أن تلقى المخاطب بغير ما يترقبه , إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله , وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد , إشارة إلى أنه كان ينبغي له أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى"، وقد استخدمه العرب كثيراً لأغراض شتى منها : التهكم والسخرية , أو التخلص من إحراج السائل , أو تقديم الأهم , أو التندر والتظرف ...إلخ

وقد وقع هذا المحسن البديعي في بعض آيات القرآن الكريم في مواضع متنوعة ، استدعاها المقام , أو في المواقف التي تدعوا الحاجة إلى استخدمه , كتصحيح خطاب البشر لرسوله (ﷺ), أو التأدب في الخطاب , أو الاستفادة من الحوار لتحقيق أكبر قدر ممكن من الفائدة.([٢٧]) . ونذكر من ذلك في الأسلوب القرآني على سبيل المثال حتى تتضح الرؤية قوله تعالى من سورة البقرة : (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)، فقد سأل المسلمون الحبيب محمد (ﷺ) ماذا ننفق من أموالنا يا رسول الله ؟ ولما كان هذا السؤال ليس في اتجاهه الصحيح , أجاب الله سبحانه وتعالى عن سؤال آخر , لم يسألوه , وهو : ما هي طرق الإنفاق ؟ فقال : (قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) فبين لهم الطرق أو الأوجه التي يجب أن ينفقوا فيها , تنزيلا لسؤلهم سؤال غيره , تنبيهاً لهم أنه كان من الأجدر والأولى عليهم أن يسألوا هذا السؤال , لا كما سألوا .

* ونذكر أيضا من ذلك قوله تعالى :(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ... (١٨٩) [البقرة]. فقد سأل بعض الصحابة (رضوان الله عليهم أجمعين) الرسول (ﷺ)عن الأهلة , لما تبدوا صغيرة , ثم تزداد , حتى يتكامل نورها, ثم تتضاءل حتى لا ترى ؟ وهذه مسألة دقيقة في علم الفلك , تحتاج إلى فلسفة عالية وثقافة عامة , وتقنيات لم تكن موجودة في عصرهم ، فصرفهم عنها ببيان أهميتها : بأنها وسائل للتوقيت في المعاملات والعبادة, إشارة إلى أنه كان الأولى لهم آنذاك أن يسألوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن فائدة الأهلة ؟ لا عن ماهيتها كما سألوا ([٢٨])([١]) .

- أما في الآية الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها (قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣ " .

أجاب (عليه الصلاة والسلام) عن سؤال لم يسألوه هم , بل كان يجب عليهم أن يسألوه – "طبقا لمقتضى الحال الواقع" - بعد أن رأوا آلهتهم الصغيرة (التماثيل) , محطمة جميعا , ولم يبق إلا الإله الأكبر (الصنم الأكبر) الذي كانوا يعظمونه , ويبجلونه أكثر من غيره , والفأس معلقة على كتفه.

فمن الطبيعي في مثل هذه الواقعة كان يجب عليهم أن يوجهوا السؤال إلى أحد ثلاث :

١- إلى إبراهيم (عليه السلام) لكونه متواجداً في موقع الحادثة , وتكون صيغة السؤال غير التي سألوه بها.
٢- إلى الصنم الأكبر أي : الإله الأكبر لهم لاحتماله أم يكون الجاني الذي قام بالاعتداء والتكسير .
٣- إلى الأصنام الصغرى (الآلة الصغرى) المجني عليها , والذي وقع عليها الاعتداء , لأنها أعرف بالمعتدي .

أما صيغة السؤال التي كان يجب أن توجه إلى خليل الله (عليه السلام) هي كالآتي :

السؤال الأول - هل يا إبراهيم - باعتبارك أنت الشاهد العيان الوحيد على الحادثة - أن ما حدث هو أن هذا الإله الأكبر غضب ، وغار أن تعبد معه هذه الآلة الصغيرة , فثار ، وحطمها جميعا حتى يعبد هو وحده ؟

فهو الوحيد الذي بقي سالما من آلهتنا , مما يوحي بأنه هو الذي قام بالعدوان عليهم , ربما لاختلافه معهم , وأنه يمتلك من عامل القوة والضخامة ، ما يؤهله للقضاء على قوة الباقين من الآلة الصغيرة ؟؟

السؤال الثاني- كان من المحتمل أيضا , أن يكون السؤال موجها إلى الصنم الأكبر (الإله الأكبر) الذي لم يُكْسَرْ كغيره , لا أن يسألوا الصديق أبا الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) فيقولون للإله الأكبر :هل أنت فعلت هذا أيها الإله الأكبر بآلهتنا الصغرى ؟ لأنك غضبت أن تعبد معك آلهة أخرى ؟

والذي يرجح هذا الرأي ويجعله محتملاً - أيضا – أن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) ترك هذا الصنم " وقال : (لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨). فالضمير هنا يحتمل أن يعود على الصنم الكبير أي : لعل قومه يرجعون إلى هذا الصنم , فيسألوه عما حدث لآلهتهم الصغرى

فأجاب أبو الأنبياء (عليه السلام) على هذا السؤال الذي لم يسألوه , لا عما سألوه , إشارة إلى أنهم كانوا ينبغي عليهم أن يسألوا هذا السؤال , لا الذي سألوه؟

فقال : بل فعله كبيرهم هذا حقا إن نطقوا " فاسألوهُم " أي:آلهتكم الصغرى هذا صحيح, (... إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) ؟

- وهم أيضا كان يجب أن يوجه إليهم السؤال لأنهم هم من وقع عليهم الاعتداء , وهم الأعلم بالمعتدي ,أليسوا آلهة يعبدونها؟! فوجهوا إليهم السؤال إن كانوا يملكون منطقا للجواب .

فقد أراد خليل الله (عليه السلام) أن يصدمهم في عقيدتهم باكتشاف الحقيقة التي يختزنوها في عقولهم ونفوسهم , ولكنهم لا يريدون أن يفكروا في نتائجها السلبية على العقيدة , ليقودهم إلى التفكير من جديد إلى القبول بإرادة الحوار حولها , وعلى ضوء هذا فإن إبراهيم عليه السلام لم يكذب في كلامه باتهام الصنم الكبير , لأنه لم يقصد الحكاية عن الواقع . بل قصد التمهيد لإظهار الحقيقة للوصول إلى النتائج الإيجابية في خط الدعوة .

- فهو لم يقع في الكذب بل سخر منهم ، وتهكم تهكما لاذعا إذ كيف يعبدون آلهة لا تنطق ولا تضر ولا تنفع حتى نفسها ؟!

وفي هذا الأسلوب القرآني تقديم وتأخير لأغراض بلاغية تدل على عظمة القرآن وبلاغته , وإعجازه معا .

الوجه الثاني: استخدم -عليه السلام- (المجاز العقلي)

أي : أسند أبو الأنبياء في هذه المقولة الفعل إلى غير فاعله الحقيقي , لوجود قرنية تمنع من إسناد المعنى الحقيقي للفعل ، وهو ما يطلق عليه البلاغيون والنقاد القدامى والمحدثون " بالمجاز العقلي " ،أو " التجاوز في الإسناد".

وقد فعل ذلك أبو الأنبياء (عليه السلام وعلى نبينا) بدافع السخرية ، والتهكم بالكافرين, ولإثارة التفكيرية والعقلانية في آلهتهم المعبودة ، لعلهم يعودون إلى رشدهم .

وقد وقع المجاز العقلي أو التجاوز في الإسناد كثيراً في القرآن الكريم , لتحقيق غايات فنية , وتوسيع العبارة , حتى تكون قادرة على حمل المشاعر والأحاسيس , ونقلها للمتلقي , ولتستوعب من المعاني ما لا تستوعبه بأصل وضعها . *ونذكر هنا طرفا من هذا المجاز الذي ورد في القرآن الكريم قبل أن نتعرض له في قول سيدنا إبراهيم في الآية الكريمة. فمن ذلك:*

- قوله تعالى في سورة البقرة : (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) فالتجارة لم تتجاوز أصل وضعها ومعناها , وكذلك الربح, لكن التجاوز جاء في إسناد الربح إلى التجارة , فالتجارة لا تربح , وإنما بسببها يربح أصحابها , وأنه يمكن الرجوع إلى الفاعل الحقيقي فنقول : "فما ربحوا في تجارتهم" فقد اسند الله عز وجل الفعل إلى سببه .

- أيضا كما في قوله تعالى من سورة الطارق : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) - فالماء لا يكون دافقا في الحقيقة بل يكون مدفوقاً .

- ومنه - أيضاً - قوله تعالى : " وجعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً" فالحجاب لا يكون مستوراً , بل يكون ساتراً , وهنا أسند الفعل المبني للمفعول إلى الفاعل. - ومثله قوله تعالى:" إنه كان وعده مأتياً" فالوعد لا يكون مأتياً ؛ وإنما يكون آتٍ .

- وعلى شاكلته أيضا - قول فرعون لهامان"في سورة غافر: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧)، فهامان لا يبني الصرح بنفسه , وإنما الذي يقوم بعمليه البناء هم العمال والمهندسون , ولكن أسند البناء إلى هامان لأنه هو السبب فيه , والآمر به .

- ونحوه قوله تعالى من سورة القصص : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) .

بل إن العرب استخدموا المجاز استخداما كثيراً , وكان المجاز عند الشعراء لافتاً ، لجأوا إليه ليخلعوا على الأشياء صفات ليست لها ,يجعلون الأخرس مبيناً،والحمار ناطقاً... الــــخ.والقرآن نزل على لغتهم .

<u>ونعود إلى المجاز في قول سيدنا إبراهيم (عليه السلام) : (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣)</u> فقد أسند أبو الأنبياء (عليه السلام) الفعل وهو جعل الأصنام جزازاً (أي صغيره متكسرة) إلى الصنم الأكبر أو إلههم الأكبر , الذي وضع الفاس في عنقه إسناداً مجازيا ، أي :إلى غير فاعله الحقيقي ,لوجود قرينة مانعة من قيام الصنم بنفسه بعملية التكسير لغيره من الأصنام الأخرى , لأنه جماد لا يتحرك ولا ينطق ولا يضر ولا ينفع , وإنما أراد أن يلفت أنظارهم إلى حقيقة معتقداتهم الفاسدة لأنهم هم يعلمون مسبقا أن هذه أحجار لا تنطق , لأنهم هم الذين صنعوها بأيديهم , ولذلك قالوا بعد أن : (.. نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) .

- فقد أسند الفعل إلى الصنم الأكبر بطريق التسبب حيث كان غيظه (عليه السلام)على الصنم الأكبر أعظم وأكثر لشدة تعظيمهم له عن " سائر ما معه من الأصنام، غضب أشد الغضب وأسند إليه الفعل الصادر منه هو من قِبَل أنه هو الذي حمله على ذلك وهوة مومئ بذلك إلى قصده ، وهو إلزامهم الحجة على ألطف وجه , وأحسنه, مع حملهم على التأمل في شأن ألهتهم " ([٢٨])

والفعل كما يسند إلى فاعله يسند- أيضا- إلى الحامل والباعث عليه , وان الفاعل الحقيقي للتكسير هو نبي الله إبراهيم (عليه السلام) وقد استخدم هذا المجاز العقلي سخرية وتهكما من أهله الوثنيين , وحملا لهم على إعادة التفكير بجدية وعقلانية أكثر فيما يعبدون من هذه التماثيل – من دون الله (عز وجل) والتي ينحتونها بأيديهم ثم يتخذونها آلهة , لا تضر، ولا تنفع ("... لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) . إذ يحتمل الضمير هنا الرجوع إلى إبراهيم ، والى عبادة الله الواحد الأحد إله إبراهيم (عليه السلام), إذ أن إلهًا لا ينفع نفسه ، ولا يدفع الضر عنه, أولى ألاَّ يُعْبَد ؛ " وقد كانت فعالة إبراهيم (عليه السلام) قوية الحجة شديدة الواقعة في نفوسهم, وكأنما ألقمهم حجرا"([٢٩]) وقد أخذ ت الموعظة مأخذها , وعمل التنبيه مفعوله(فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ) "فقال بعضهم لبعض, أو تفكروا في نفوسهم : فقالوا إِنَّكُمْ "أيها القوم :" أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ " لأنفسكم حيث تعبدون هذه الأصنام التي لا تقدر على دفع العدو عن نفسها, وحتى عن النطق وإظهار من فعل الكسر بها.

وعلى هذه التخريج - أيضا - يكون إبراهيم الصديق لم يكذب كما ادعى البعض .

الوجه الثالث: استخدم (عليه السلام) في كلامه

(الأسلوب الشرطي التهكمي)

استخدم عليه الصلاة والسلام هنا أسلوب الشرط التهكمي الساخر في كلامه عندما سألوه, فقالوا له : (قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) ،أي : أأنت الذي كسرت هذه الأصنام وجعلتهم جذاذا ؟؟ وهم يعلمون , أو على الأقل يعلم بعضهم,أنه هو الفاعل الحقيقي لذلك , فالأمر ليس خافيا عليهم, ألم يقسم بذلك من قبل وقال:(وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)" ، فمراد سؤالهم له هو الاعتراف بذلك ليُقْدِمُوا على إيذائه ، ومحاكمته أمام العالمين حتى لا يجرأ أحد من الناس على ارتكاب ما ارتكبه إبراهيم(عليه السلام) ، وهم معتقدون بصحة هذه الجريمة في زعمهم, فوجهوا له هذا الاتهام لأنه الوحيد من بينهم الذي لا يعبد الأصنام مما يجعله في الموقع الحقيقي للاتهام . لأن الذي يعبد الأصنام لا يمكن أن يسئ إليها , لأنه يعاقدها، و يخاف من نتائج ذلك على نفسه وأهله.

فما كان منه عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام إلا أن بادرهم بما أدهشهم جميعا حتى تمنوا الخلاص منه فـ: (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) ، فجعل الصادق (عليه السلام) كلامه مشروطا فقال: إنما فعله كبيرهم هذا إن نطقوا . وإن لم ينطقوا فلم يفعله كبيرهم هذا , وما نطق كبيرهم وما كذب أبو الأنبياء(عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) . "فعلق فعل الكبير بنطق الآخرين , تنبيها لهم على فساد اعتقاده ([٣٠]). ففي الآية الكريمة تقديم وتأخير , على هذا التأويل .

وفي هذا الكلام اعتراف(ضمني) بأنه هو الفاعل ، وهذا هو الصحيح ، لأنه عدده على نفسه , فدل انه خرج مخرج التعريض, وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله كما قال إبراهيم لأبيه" يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر " الآية- فقال إبراهيم "بل فعله كبيرهم هذا" ليقولوا : إنهم لا ينطقون ، ولا ينفعون ، ولا يضرون . فيقول لهم: فلم تعبدونهم ؟ فتقوم عليهم الحجة منهم , ولهذا يجوز عند الأمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه , فانه أقرب في الحجة واقطع للشبهة ([31]) .

فيعد هذا القول من القضايا (الشرطية) الفرضية, أن آلهتهم ، أو أصنامكم المعبودة إن كانت من ذوى الإحساس فقد فعله كبيرهم, مثل : (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) فالقصد من هذا الأسلوب إلزامهم الحجة ، وأن هذه الأصنام لو كانت آلهة لأدركت ،وتكلمت ،وحطمت من أراد بها سوءا .

الوجه الرابع :(جاء حرف " بل" بمعنى "لا")

وأرى أن " بل " في الآية الكريمة أخذت معنى حرف النفي "لا" ، وبذلك نكون قد أضفنا لمعنى "بل" معنى آخر غير الإضراب والعطف , لم يذكره علماء النحو واللغة القدامى ضمن معانيها من قبل ، وإن كانت "بل" تحمل ضمنيا معنى النفي غير الصريح.

فقد قال علماء النحو واللغة : إن الاستفهام بحرف الهمزة يكون الجواب عليه : إما بـ " نعم" ، أو "لا" ، ولا ثالث لهما .

وعند حديثهم عن هذه الآية الكريمة قـدَّرَ بعضهم ذلك , حتى لا يخرجون عن دائرة القاعدة التي قرروها. ونسوا أو تناسوا أن القرآن الكريم هو أصل اللغة , وأن ورود أي أسلوب فيه يكفي أن يكون أسلوباً عربياً فصيحاً , وهو الأساس والمرجع في تأصيل أية قاعدة من القواعد النحوية , فلا يجوز بأي حال من الأحوال , أن نأخذ بقاعدة نحوية وضعها البشر ، ونحكّمها على نصوص القرآن التي هي أساس القواعد النحوية , وبالتالي نقع في محظور لا يليق بالأنبياء كهذا , وإنما الذي يجب أن نعتقد ه اعتقاداً جازمًا ، لا مجال للشك فيه، أن الله عصم إبراهيم (عليه السلام) من الكذب, وبرأ ساحته وطهره , ونزهه عن الفاحشة ، وصانه منها ، وكذلك سائر الأنبياء والمرسلين .

- وفي حالة تقديرنا "بل" في هذه الآية بمعنى "لا" ، يكون في كلام إبراهيم نفي وإثبات في نفس الوقت ، فيصبح المعنى :

إن إبراهيم قال لهم : أو أنتم تعتقدون أن كبير آلهتكم فعل هذا ، وأنه قادر على ذلك. (لا) فعله كبيركم هذا) لأنه عاجز عن أن يفعل شيئاً , مثل باقي آلهتكم الصغيرة المتكسرة . وإنما صدر الفعل من غيره, وفي هذا تقرير لإسناد الفعل لخليل الله (عليه السلام), ، ثم

قال: فاسألوهم إن كانوا هم أيضا ينطقون , فيخبروكم من المعتدي الحقيقي ، أو الفاعل الحقيقي : هل هذا الصنم الأكبر؟ أم غيره ؟ " إن كانوا ينطقون" وما ونطقوا , وما كذب إبراهيم (عليه السلام) .

وبهذه النفي والإثبات - أيضا – تخلص إبراهيم (عليه السلام) من سؤالهم بدون الوقوع في الكذب ، فضلا عن أنه توجيه رشيد لقومه نحو التأمل في أحوال أصنامهم , لمحاولة تصحيح عقيدتهم, عن طريق استخدام الأسلوب الساخر ، والتهكم اللاذع في النفي والإثبات ، لذا قال " فاسألوهم إن كانوا ينطقون" إذ أنهم فهموا من أبي الأنبياء (عليه السلام) أنه هو الفاعل ، وليس الصنم الكبير(أو إلههم الأكبر) الذي يعظمونه لرغبته في الانفراد بالعبادة وحده , وفي هذه تبكيت لاذع لهم ، لأنهم يعلمون أن هذه الأصنام لا تنطق .

***

*<u>وقد يعترض بعض النحاة المحدثين على أن "بل" لم تأت بمعنى(لا) , النافية إطلاقاً,وأن النحاة القدامى لم يذكروا ذلك في كتبهم ، فما الدليل على هذا الاستعمال الجديد لـ "بل" بمعنى "لا" ؟ نقول :</u>

١- إن "بل" إذا أخذت معناها الذي وضعه النحاة القدامى لها ؛ وهو "إضراب الحكم عما قبلها ، وإثباته لما بعدها " , بهذا المعنى يكون فيه إثبات الكذب على أبي الأنبياء (عليه السلام), وهذا غير جائز صدوره إطلاقا من الأنبياء , فهم معصومون ، ومصطفون ، ومختارون على العالمين, والصدق صفة لازمة لجميعهم دون استثناء , حتى لا يبطل الوثوق بكلامهم . وقد قال الفخر الرازي : " فإنه لو جاز (حاشا لله ذلك) أن يكذبوا لمصلحةٍ بإذن الله فيه ، فيجوز هذا الاحتمال في كل ما أخبروا عنه ، وذلك يبطل الوثوق بالشرائح , وتطرق التهمة إلى كله" .

٢- إن علماء اللغة عندما قعّدوا النحو استمدوا قواعدهم من القرآن الكريم ، والشعر العربي في عصوره الأولى ، فقد يكونوا قد أغفلوا هذا الاستخدام لـ "بل" بمعنى "لا" النافية ، لأنهم لم يحاولوا نفي الكذب عن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) لوجود الحديث الذي نسبت روايته إلى أبي هريرة عن النبي (ﷺ)" لم يكذب إبراهيم قط إلا ثلاث كذبات منهم"بل" فعله كبيرهم هذا" ، <u>فظنوا أن "بل" هنا في هذه الآية جاءت على أصل معناها الذي وضعوه لها ، وهو الإضراب عما قبلها وإثبات الحكم لما بعدها</u> . دون أن يحاول أحدهم الولوج في المعنى الجديد الذي أثبتناه , والذي يشير إليه سياق معنى الآية الكريمة ، وتؤكده آيات سابقة " كان صديقا نبينا " . وليس غريبا على الإنسان أن يستدرك على سابقيه ما لم يلتفتوا إليه ، أو أغفلوه , أو يصحح خطأ وقعوا فيه , وقد قال الإمام مالك : كل يؤخذ منه ويرد إلا صاحب هذه القبة ،أي : النبي محمد (ﷺ) .

الوجه الخامس: قال علماؤنا :

إن الكذب هو الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه . والإظهار أن قول إبراهيم فيما أخبر عنه (عليه السلام) كان من المعاريض, وإن كانت معاريض، وحسنات، وحججا في الخلق، ودلالات, لكنها أثرت في الرتبة, وخفضت عن مَحْمَدِ المنزلة, واستحيا منها قائلها, على ما ورد في حديث الشفاعة, فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم ، إجلالاً لله ، فإن الذي كان يليق بمرتبته في النبوة والخلّة, أن يصدع بالحق ، ويصرح بالأمر كيفما كان, ولكنه رخص له ، فقبل الرخصة ، فكان ما كان من القصة, ولهذا جاء في حديث الشفاعة.:"إنما اتخذت خليلا من وراءَ وراءَ" (بنصب وراءَ فيهما على البناء) كخمسة عشر, وكما قالوا:جاري بَيْتَ بَيْتَ. ووقع في بعض نسخ مسلم "من وراءُ من وراءُ" بإعادة من, وحينئذ لا يجوز البناء على " الفتح, وإنما يبنى كل واحد منها على الضم, لأنه قطع عن الإضافة, ونوى المضاف ، كقبل وبعد, وإن لم ينو المضاف أعرب ونون غير أن وراء لا ينصرف, لأن الألف للتأنيث, لأنهم قالوا في تصغيرها وريبة,.. والمعنى : إني كنت خليلاً متأخرا عن غيري " ([٣٢]).

وأرى أن هذا الرأي جانبه الصواب: إذ أنه يصرح أن نبي الله إبراهيم (عليه السلام) وقع في المعاريض, وأن هذه المعاريض فيها رخصة من الله سبحانه وتعالى ، *ولكونه نبي الله كان ينبغي له ألا يقبل هذه الرخصة ، ولا يقع في هذه المعاريض ، لأن وقوعه فيها أثرت في رتبة ودرجته ، وخفضت من حسناته ومنزلته. وكان يجب عليه (الصلاة والسلام) أن يصرح بالأمر كيفما كان على حقيقته* - وهذا القول خطأ بين للآتي :

- إن الله سبحانه وتعالى حينما يرخص رخصة يحب أن تؤتى هذه الرخصة. كما أن استخدام الرخصة ليس ذنبا يلام عليه العبد؛ بل هو يثاب على فعلها. فقد استخدم (المعاريض) غيره من الأنبياء وعلى رأسهم سيد المرسلين محمد(ﷺ) , وأتى في كلامه من المعاريض كثيرا ؛ بل إن السنة النبوية حافلة بذلك, وكذلك القران الكريم أيضا, ولم ينقص ذلك استخدام النبي محمد (ﷺ) من درجته, ولا من منزلته مع الله عز وجل, ولم يشعرنا النبي (ﷺ)في استخدامه لهذه الرخص بأي حساسية ، أو أنها تنال من نبوته ومكانته, ولو كان الأمر كذلك لابتعد عنها ، ونبهنا إلى ذلك ؛ لأنه كان أحرص العباد على الابتعاد عن كل ما يجد فيه أدنى شبهة, كما كان يحض أصحابه على ذلك. بل كان يقول لأصحابه: "إن الله يحب أن تؤتى رخصة كما تؤتي عزائمه".

- والرخصة هي رحمة من الله لعباده جميعا لأنبيائه ، ولأممهم على حد سواء - فمتى كانت رحمة الله بعباده لومًا أو جرحا؟!

الوجه السادس:

جعل الكسائي : "الوقف على " فعله " أيضا, إلا أنه قال الفاعل محذوف، أي : " فعله من فعله"

- وتعقبه أبو البقاء : بأنه بعيد ؛ لأن حذف الفاعل لا يسوغ ، أي : عند الجمهور, وإلا فالكسائي يقول : بجواز حذفه .

- وقيل : يجوز أن يقال : إنه أراد بالحذف الإضمار ، وأكثر القراء اليوم على الوقف على ذلك وليس بشيء .

- وقيل : الوقف على " كبيرهم ", وأراد به (عليه السلام) نفسه ، لأن الإنسان أكبر من كل منهم .

- وعلق الألوسي على هذا قائلا : " وهذا التوجيه عندي ضرب من الهزيان " (٣٣). وكذلك عندنا .

الوجه السابع :

"وزعم بعضهم أن الآية على ظاهرها ، وراعى أن صدور الكذب من الأنبياء (عليهم السلام) لمصلحة جائز, فيه أن ذلك يوجب رفع الوثوق بالشرائع, لاحتمال الكذب فيه لمصلحة, فالحق أن لا كذب أصلاً ،وإن في المعاريض لمندوحة عن الكذب.

الوجه الثامن :

- استخدم قوم إبراهيم (عليه السلام) في الآية الكريمة تجاهل العارف في معالجة الحادثة .

و تجاهل العارف هو : أحد المحسنات البديعية المعنوية، التي وردت في القرآن الكريم في مواضع متعددة ، تعبر عن عظمته ، وتفصح عن إعجازه ، وروعة أساليبه وبيانه ، وجودة نظمه ، وفصاحة ألفاظه وبلاغة كلامه ، وتبرهن على أنه ليس كلام بشر، وإنما هو كلام رب العالمين ، وقد جاءت في آياته إما للمبالغة ، أو الذم ، أو التعظيم ، أو التوبيخ ، أو التحقير ، أو التقرير ، أو الإيناس، أو غيرها مما يهدف من وراءه التظاهر بعدم المعرفة والعلم لحكمة ألرادها الله في سياقات القرآن المختلفة . وهو سؤال المتكلم عما يعلم سؤال من لا يعلم . [راجع مؤلفنا: من روائع البديع: ص: ١٥٠].

- فقوم إبراهيم (عليه السلام) كما ذكرنا: كانوا يعلمون أن إبراهيم (عليه السلام) هو الذي حطم آلهتهم فقد سبق أن توعدهم بذلك فقال لهم: (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)[الأنبياء] ، وقد شهد بذلك عليه بعض قومه الذين كانوا موجودين و سمعوا

تهديد:(قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) ولكنهم أرادوا أن يثبتوا عليه الحجة ، ليقيموا عليه العقوبة أمام الناس . فسألوه: (قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟(٦٢)

ـ كما استخدم إبراهيم (عليه السلام) في الإجابة عليهم محسنا بديعيا آخر وهو الأسلوب الحكيم ، ففاجأهم (عليه السلام) بغير ما يتوقعون ، أو يترقبون ويقصدون ؛ استهزاءً بهم وسخريةً ، فقال: (...بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ... (٦٣) إشارة إلى أنه كان ينبغي عليهم أن يقصدوا هذا المعنى ، أو أن يسألوا سؤالا آخر غير ما سألوا ، مضمونه :..هل الصنم الكبير ، أو الإله الأكبر المعبود هو الذي فعل ذلك يا إبراهيم ؟ باعتبار أنه غار أن يعبد معه آلهة ؟ وإذا سألوا ذلك السؤال المتوقع " لو كانوا يعلمون " لأقام إبراهيم (عليه السلام) الحجة على بطلان كل معبوداتهم وآلهتهم ، إذ أنه لا إله إلا الله, ولو كان في الأرض آلهة أخرى غير الله, أو معه لفسدت الأرض .

ورب قائل: إذا كان إبراهيم (عليه السلام) لم يقع في الكذب ، فلماذا قال : (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) [الشعراء] أليس لقوله (فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ) ؟ وقوله " بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا " ؟ وقوله لسارة: هي أختي؟

ـ سُئِلَ الإمام الزمخشري هذا السؤال من قبل ، فأجاب : " ما هي إلا معاريض كلام, وتخيلات للكفرة, وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار . فإن قلت : إذا لم يصدر منهم إلا الصغائر ، وهي تقع مكفرة, فماله أثبت لنفسه خطيئة ، أو خطايا وطمع أن تغفر له؟ قلت: الجواب ما سبق لي : إن استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم ، وهضم لأنفسهم, ويدل عليه قوله : (أطمع) ولم يجزم القول بالمغفرة. وفيه تعليم لأممهم, وليكون لطفا لهم في اجتناب المعاصي ، والحذر منها, وطلب المغفرة مما يفرط منهم . وان قلت : لما علق مغفرة الخطيئة ليوم الدين ، وإنما تغفر في الدنيا ؟ قلت: لأن أثرها يتبين يومئذ, هو الآن خفي لا يعلم." (٣٤) .

فليس بالضرورة أن يكون المستغفر قد وقع في خطأ ، أو معصية ارتكبها, وأن استغفار أبو الأنبياء لا يعني الوقوع في الذنب ، وإنما قد يكون لرفع الدرجات . وقد يكون لشكر الله سبحانه وتعالى على النعمة, أو لرفع البلاء , أو دفع الكرب ، أو الرزق بالولد وغيره الذي كان إبراهيم (عليه السلام) في أمس الحاجة إليه كما ورد في الآية الكريمة"اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ..." . وقد كان الحبيب محمد(ﷺ)يستغفر في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة فيما ورد عنه , وكان أكثر دعائه استغفارا, وحث أصحابه على ذلك. وكان يقوم الليل حتى تتورم قدماه, وقد سئل عن ذلك "وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر" فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً. بل إن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالاستغفار فقال في

سورة نوح : (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) .

- وأن الملائكة يستغفرون للنبي(ﷺ)بنص الآية الكريمة:" (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ...(٥٦) ، فصلاة الملائكة على النبي محمد (ﷺ) هو استغفار له.([٣٥])

- وقال النبي (ﷺ): " إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم , وتستغفر له.." .

* وقد ورد عن الحسن بن علي (رضي الله عنهما) ([٣٦]) أنه وفد على معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه وعن أبيه وأمه) , فلما خرج تبعه بعض حجابه ، فقال: إني رجل ذو مال ولا يولد لي , فعلمني شيئا لعل الله يرزقني ولدا, فقال : " عليك بالاستغفار ".

فكان الحاجب يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة, فولد له عشرة بنين , فبلغ ذلك معاوية ، فقال: هلا سألته مم قال ذلك , فوفد أخرى. فسأله الرجل فقال: ألم تسمع قول هود (عليه السلام) : (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) " ، وقول نوح عليه السلام : (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) .

- فقد يكون استغفار سيدنا إبراهيم (عليه السلام) ليرزقه الله بالبنين ، وقد بلغ هو وزوجته من العمر مرحلة قد ييأس الإنسان معها من الإنجاب ، فهو كبير ، له من العمر مائة وعشرون سنة ، وكانت زوجه عقيم ولها ثمان وتسعون " قالت : (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) [سورة هود] . فاستجاب ربه داءه لاستغفاره : (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)[هود].

- وكانت توبته - أيضا - " إنما كانت خضوعا لله وخشية منه ، وتقربا إليه ، وخوفا من الكبر الخفي ، أو الغرور المستتر ، أو الغفلة التي قد لا يشعر بها الإنسان .

- إنما كانت توبة عبادة ، وتوبة إنابة وقربى لله عز وجل .

* *وما أروع ما قاله فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود (رحمه الله) وهو يتحدث عن التوبة والاستغفار* : " وتوبة العوام إنما هي من الذنوب والآثام ، أما الخواص فإنهم لا يتوبون من الآثام والمعاصي ، فذلك ميدان قد تطهروا منه ، ونزههم الله برحمته عن أن يقعوا فيه ، ومع ذلك فإنهم يتوبون إلى الله ويستغفرونه مصبحين ، ويستغفرونه (سبحانه)

ويتوبون إليه ممسين ، بل يستغفرونه ويتوبون إليه تعالى في كل وقت وحين : خضوعا له ، وخشية منه ، وتقربا إليه ، وخوفا من الكبر الخفي ،أو الغرور المستتر،أو الغفلة التي قد لا يشعر بها الإنسان " (٣٧) .

ثم يستطرد قائلا : " لقد كان رسول الله (ﷺ)في ترقيه الدائم ، وفي أنواره التي تزداد كل لحظة ضياء : يستغفر الله ، ويتوب إليه ، استغفار عبادة ، وتوبة إنابة وقربى . يقول صلوات الله عليه) فيما رواه البخاري : " والله إني لأستغفر الله، وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة ".

ويقول فيما رواه الإمام مسلم : " يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه ، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة " (٣٨) .

(هـذه أخـــــتي)

من بين الكذبات التي نسبت إلى سيدنا إبراهيم (عليه السلام) قوله عن زوجه سارة : إنها "أختي") . وإليك القصة كما وردت في كتب التفاسير :

يقول ابن كثير في تفسيره: " قال ، وبينما هو إبراهيم(عليه السلام) يسير في أرض جبار من الجبابرة ، ومعه سارة ، إذ نزل منزلا ، فأتى الجبارَ رجلٌ ، فقال : إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس, فأرسَلَ إليه ، فجاء ، فقال : ما هذا المرأة منك؟ قال : أختي . قال: فاذهب ، فأرسل بها إليَّ , فانطلق إلى سارة ، فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنك أختي ، فلا تكذبيني عنده. فإنك أختي في كتاب الله, وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم, ثم قام يصلي , فلما دخلت عليه فرآها , أهوى إليها ، فتناولها ، فوُجِئَ أخذاً شديداً . فقال: ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت به ، فأرسل , فاهوى إليها ، فتناولها , فاخذ بمثلها أو أشد , ففعل ذلك الثالثة, فاخذ , فذكر مثل المرتين الأوليتين, فقال أدعي الله فلا أضرك, فدعت له ، فأرسل , ثم دعا أدنى حجابه فقال:إنك لم تأتني بانسان ، ولكنك أتيتني بشيطان, أخرجها, وأعطها هاجر، فأخرجت , وأعطيت هاجر , فأقبلت , فلما أحس إبراهيم بمجيئها ، انفلت من صلاته, وقال: مهيم . قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر , وأخدمني هاجر, قال محمد بن سيرين : فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال : تلك أمكم يا بني ماء السماء" (٣٩) .

هذه القصة وإن كانت صادقة - ولا أظنها كذلك- فهي لا توقع أبي الأنبياء في الكذب, ولا تعد كذباً , كما يظن البعض, وإنما هي ضمن المعاريض, وقد ورد في الخبر – كما ذكرنا: "إن في المعاريض لمندوحة من الكذب" . فقول الصديق النبي ، أبي الأنبياء إبراهيم ((عليه السلام) للطاغية في حق زوجته سارة": هي أختي" كما وردت في القصة . جاء على *أسلوب التورية* "والتورية كما ذكرنا آنفا هي أحد الأساليب البلاغية التي يستطيع أن نفهم

عن طريقها بعض آيات القران الكريم، وكلام سيد المرسلين فهما صحيحا , وبها يستطيع الإنسان أن يتخلص مما يخشى عواقبه , ويناى بنفسك عن الكذب , أو عدم الإفصاح عما لا يريد الإفصاح عنه.(٤)

ونبي الله إبراهيم (عليه السلام) لو قال الحقيقة لوقع في المحظور, وفعل به كما فعل بغيره ، فاستخدم أسلوب التورية في حديثه ، وأجاب عن سؤال النمرود , دون أن يقع في الكذب, ودون أن يصاب بسوء , مستخدما رخصة " إن في التعاريض لمندوحة من الكذب" فقال:" هي أختي" .

وهذه الكلمة تحمل معنيين : معنى قريب ، وهو غير مراد, ومعنى بعيد غير واضحة , وهو المقصود الذي ورى به إبراهيم (عليه السلام) وستره وأظهر غيره . *فالمعنى القريب* : هي أختي " في النسب" ، وهو الذي فهمه النمرود, فنجى إبراهيم (عليه السلام) من شره. - *والمعنى البعيد* : هي أختي " في الإسلام "أي أراد بذلك أخوة الإسلام والدين" وهذا الذي عناه إبراهيم ولم يستوعبه النمرود.

وبذلك لا يكون هناك كذب ألبته صدر من أبي الأنبياء الصديق النبي, كما زعم بعضهم ، ربما لقلة فهمهم للغة العربية ، وعدم معرفتهم لأساليبها ، و أفانينها وطرق أدائها المختلفة, وكان الأولى بهم أن يتريثوا ، ويتحققوا قبل إصدار أحكامهم ، ويقذفوا أبا الأنبياء (عليه السلام) بتهمة الكذب ، فالأنبياء - كما أشرنا - معصومون من الوقوع في الفواحش والمنكرات التي بعثوا لتزكية الناس منها, لئلا يكونوا قدوة سيئة, ومفسدين للأخلاق والآداب , وحجة للسفهاء على انتهاك حرمات الشرائع.

فإن الكذب قبيح قبيح قبيح ، ولا يجوز ذلك على الأنبياء إطلاقا ، لأنه يرفع الثقة بقولهم " جل رسل الله ، وأنبياء ، وأمناء ، وأصفياءه عن ذلك. فإن المقصود من الكلام وسياقه هو الذي يجعله صدقاً أو كذبا , لا القالب الموضوع فيه , وأن الألفاظ يبدوا معناها من سياق الكلام , فتكتسب معان لم تكن موجودة بأصل وضعها اللغوي . ألا ترى أنك لو قلت للبخيل الذي اشتهر بالبخل ، وصار علما عليه : بأنه كريم تريد التهكم منه, هل تكون كذابا؟ وكذلك لو قلت لرجل شجاع : أنه أسد , (أردت المجاز) هل تكون كذابا؟ .

***

" هَذَا رَبِّـــي "

جاء في حديث الإسراء الذي ذكره الإمام مسلم في صحيحه ، من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) في قصة نبينا إبراهيم (عليه السلام) عن أبي حيان عن أبي زرعة عن أبي هريره. زيادة في قصة إبراهيم (عليه السلام) السابقة ، فأضاف كذبة رابعة، وهي قوله في

الكواكب:" هذا ربي" فعلى هذا تكون الكذبات أربعاً ، إلا أن الحديث الذي رواه الأمام مسلم في مكان آخر عن أبي هريرة(رضي الله عنه) عن الرسول (ﷺ) ينفي تلك بقوله: " لم يكذب إبراهيم النبي قط إلا في ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله , قوله: " إني سقيم" وقوله " بل فعله كبيرهم هذا" وواحد في سارة"([٤١]).

- ويورد الإمام القرطبي في تفسيره آراء بعض العلماء في ذلك كقولهم : " وإنما لم يعد (عليه السلام) عليه قوله في الكواكب: "هذا ربي" كذبة ، وهي داخلة في الكذب , لأنه(والله أعلم) , كان حين قال ذلك في حالة الطفولة, وليست حالة تكليف " ([٤٢]).

ثم يوردون احتمالا آخر فيقولون : " أو قال لقومه مستفهما لهم على جهة التوبيخ والإنكار , وحذفت همزة الاستفهام . أو على طريق الاحتجاج على قومه: تنبيها على أن ما يتغير لا يصلح للربوبية وفي تلك الحالة لا يكون كفر ولا إيمان" ([٤٣]) .

ثم يستطرد قائلا : واستدل قائلوا هذه المقالة بما روى عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : " (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) " فعبده حتى غاب عنه , وكذلك الشمس والقمر ؛ فلما تم نظرة قال : (إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) واستدل بالأفول , لأنه أظهر الآيات على الحدوث"([٤٤]).

- ثم ينكر عليهم هذا الرأي فيقول : " وقال قوم : هذا لا يصح ؛ وقالوا : غير جائز أن يكون لله تعالى رسولٌ ، يأتي عليه وقتٌ من الأوقات إلا وهو لله تعالى موحد ، وبه عارف ؛ ومن كل معبود سواه برئ . قالوا: وكيف يصح أن يتوهم هذا على من عصمه الله ، وآتاه رُشده من قبل , وأراه ملكوته ليكون من الموقنين , ولا يجوز أن يوصف بالخلو من المعرفة؛ بل عرف الرب أول النظر " ([٤٥]) .

- ثم يقول : قال الزجاج: هذا الجواب عندي خطأ وغلط ممن قاله ؛ وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال " (... وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) [سورة إبراهيم] .

- وقال جل وعز : " (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) [الصافات]" أي لم يشرك به قط . قال والجواب عندي أنه قال"هذا ربي" على قولهم لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر ؛ ونظير هذا قوله تعالى :" (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) " وهو جل وعز واحدٌ لا شريك له , والمعنى أين شركائي على قولكم.([٤٦]).

- وقيل : لما خرج إبراهيم من السَّرب رأى ضوء الكوكب ، وهو طالب لربه ؛ فظن أنه ضوءه قال : "هَذَا رَبِّي" أي بأنه يتراءى من لي نوره." فلما أفل " علم أنه ليس بربه , (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا) ونظر إلى ضوئه (قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي... (٧٨) وليس هذا شركا, إنما نسب الضوء إلى ربه، فلما رآه زائلا دله العلم على أنه غير مستحق لذلك ؛

فنفاه بقلبه ، وعلم أنه مربوب ، وليس برب .([٤٧]) . وقيل : إنما قال : "هذا ربي " لتقرير الحجة على قومه فأظهر موافقتهم ؛ فلما أفل النجم قرر الحجة , وقال : ما تغير لا يجوز أن يكون ربا, وكانوا يعظمون النجوم ، ويعبدونها ويحكمون بها.

وقال النحاس: ومن أحسن ما قيل في هذا ما صحّ عن ابن عباس ، أنه قال في قول الله عز وجل : (نُورٌ عَلَى نُور (٣٥) [سورة النور] . قال: كذلك قلب المؤمن ، يعرف الله عز وجل ، ويستدل عليه بقلبه , فإذا عرفه ازداد نورا على نور ؛ وكذلك إبراهيم (عليه السلام) عرف الله (عز وجل) بقلبه واستدل عليه بدلائله , فعلم أن له ربا وخالقا. فلما عرَّفه الله (عز وجل) بنفسه ازداد معرفة ، فـــ: (قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) ".([٤٨])

- وقيل : هو على معنى الاستفهام ، والتوبيخ , منكِرًا لفعلهم. والمعنى : أهذا ربي , أو مثل هذا يكون ربـــاً ؟ فحذف الهمزة . وفي التنزيل (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) "أي : أفهم الخالدون .

- وقال(أبو خراش) الهُذَلِيُّ :

رَفَوْنِي ([٤٩]) وقالوا : يا خُوَيْلِدُ لا تُرَعْ فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ : هُمُ هُمُ

- وقال آخر (عمر بن أبي ربيعة) :

لعَمْرُكَ مَا أدْري وإنْ كُنْتُ دَارِيًا بسبع رَمَيْنَ الجَمْرَ أمْ بثمَان

وقيل هذا ربي على زعمكم؛ كما قال تعالى :(أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢)[النحل]- وقال " (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) [الدخان]" أي عند نفسك . وقيل : المعنى أي : وأنتم تقولون هذا ربي ؛ فأضمر القول , وإضماره في القرآن كثير.([٥٠]) . وقيل : المعنى في (هذا ربي) أي هذا دليل على ربي .

- ومن أروع ما قيل هو قول الإمام الزمخشري في كشافه: " كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام ، والشمس ، والقمر ، والكواكب ، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم , وأن يرشدهم إلى طريق النظر ، والاستدلال , ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدّ إلى أن شيئا منها لا يصح أن يكون إلها , لقيام دليل الحدوث فيها , وأن وراءها مُحْدِثًا أحدثها , وصانعا صنعها , ومدبرا دبر طلوعها ، وأفولها ، وانتقالها، ومسيرها ، وسائر أحوالها " هَذَا رَبِّي " قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل , فيحكي قوله كما هو , غير متعصب لمذهبه, لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب , ثم يكرُّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة " لا أحب الآفلين" لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال , المتنقلين من مكان إلى مكان , المحتجبين بستر , فإن ذلك من صفات الأجرام .([٥١])

ومن خلال عرضنا للآراء السابقة يتضح أن أبو الأنبياء (عليه السلام) لم يكذب في قوله " هَذَا رَبِّي " ولست هذه المقولة داخلة في الكذب إطلاقا ، وإنما حمل قوله عدة أوجه،أوجهها وأقربها هي :

الوجه الأول - إنما قال لقومه مستفهمًا لهم على جهة التوبيخ والإنكار , فالاستفهام هنا استفهام إنكاري غير حقيقي . وهمزة الاستفهام هنا محذوفة أي "أهذا ربي" .

والوجه الثاني - إنه قال ذلك على سبيل الاحتجاج على قومه تنبيهًا على أن ما يتغير ويتبدل لا يصلح للربوبية .

والوجه الثالث - ما أشار إليه الزمخشري: إنه (عليه السلام) أراد أن ينبه قومه إلى الخطأ في ما بينهم , وأن يرشدهم إلى طريق الاستدلال والنظر والتفكر , ويعرفهم أن التفكر الصحيح يؤدي أن آلهتهم التي يعبدونها من : أصنام ، وكواكب ، وشمس ، وقمر . لا يصلح أن يكون إلها يعبد ، لقيام دليل الحدوث فيها ، وأن وراءها مُحْدِثًا أحْدَثَها , وصانعًا صنعها وسيدا يدبر طلوعها , وأفولها، وانتقالها ، ومسيرتها ، وسائر أحوالها. فقوله " هذا ربي " قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل , فيحكي قوله , كما هو غير متعصب لمذهبه , لأن ذلك أدعى إلى الحق ، وأنجى من الشغب ، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة " لا أحب الآفلين " .

الوجه الرابع - في هذه الآية بما يسمى في علم البلاغة بـ "الاستدراج " وهو أحد الفنون البديعية المعنوية ،فقد أراد نبي الله إبراهيم (عليه السلام) استدراج قومه لاكتشاف الحقيقة بأنفسهم ، ليدركوا خطأ معتقدهم ، وباطل آلهتهم بذواتهم ، مستخدما في ذلك العقل والمنطق السليم ، لإثبات الحجة عليهم فحكى قول قومه كما هو، وهو يعلم أنه باطل , دون أن يتعصب لدينه , وجاراهم في قولهم حتى فرغوا من كامل حديثهم ,وبذلك يكون قد أجبرهم على سماعه , وعرض حجته بطريقه هادئة ، وبسيطة ، دون تعصب , ونجى من شغبهم , مستندا على الإقناع العقلي في التخاطب , ومستخدما المنطق في المجادلة : فكل مقدمة تؤدي إلى نتيجة . فلما رأى قومه يعبدون كوكبا ، قال لهم: أهذا ربي؟ على وجه الاستفهام الإنكاري . فقالوا : نعم أنه ربك وإلهنا الذي نعبد نحن وآباؤنا الأقدمون.فانتظر لما أفل , فقال لهم: هل يعقل أن يكون الإله آفلا ؟. ووجد آخرون يعبدون الشمس ، وآخرون يعبدون القمر...إلخ.

وبعد ..، فلقد دفع الله (سبحانه وتعالى) تهمة الشرك عن أبي الأنبياء ، وبصورة متكررة ، ومطردة في محكم كتابه فقال من سورة البقرة : (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)" .

- وقال أيضا : (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) [آل عمران].

- وقال(سبحانه و تعالى)من سورة الأنعام : (... يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٧٩).

- وقال (سبحانه و تعالى) - أيضا - من سورة الأنعام : (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) .

- وقال (سبحانه و تعالى) في سورة النحل : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) .

وقال (سبحانه و تعالى) في موضع آخر من سورة النحل: (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) .

فهذه الآيات جميعا تأكد نفي الشرك عن أبي الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) ، وتدفع عنه تهمة الكذب في قوله " هذا ربي" .

وكأني برب العزة(سبحانه وتعالى) قد تعمد في هذه الآيات دفع مفهوم الشرك عن نبي الله إبراهيم (عليه السلام) وبصورة مضطرده ، ومتكررة لعلمه (سبحانه وتعالى) السابق بأنه سيأتي من يطعن في وحدانيه - ولو بدون قصد - لاضطرا به في فهم الآيات، وأخذهم بظاهر النصوص دون تعمق وتفكر وتدبر، الذي حض عليه القرآن في كثير من آياته . ولنعلم أن قلوب لأنبياء دوما بالله مشغولة, وأن بواطنهم ظاهرة لا يعتريها شيء من التفكير فيما سواه (سبحانه وتعالى) -

(وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)

جانب بعض المفسرين الصواب عندما فسَّروا قوله تعالى من سورة الأنعام : (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) . فقالوا: إن "الواوَ" في قوله تعالى " وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ " زائدة. ليكون مدلول الفعل علة لما قبله. ونرى أن القول بهذا التفسير شطط لا مبرر له , وفيه اتهام لأبي الأنبياء(عليه السلام) بأنه لم يكن موقنا من قبل!!

فان من قالوا بذلك - وهم قلة , وإن كان كلامهم ينشر ، ويتردد في كتبهم المتداولة - ينظرون إلى كلمات القرآن الكريم نظرة جزئية , دون مراعاة للسياق العام في السورة الشريفة , ودون مراعاة – أيضا- للنصوص المكتملة في السور المختلفة عند التفسير , إذ

أن النص القرآني يكون مفسرا لأخيه في موضوع آخر , عن طريق إيضاح مُبْهَم , أو تفصيل مجْمَل .

فإذا رجعنا إلى قصة إبراهيم (عليه السلام) في سورة الأنبياء نجد أن الله (عز وجل) يقول في سورة الأنبياء : (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) . نجد أن إبراهيم (عليه السلام) قد أُوتي رشده من قبل أن يحاور أباه وقومه , وينهاهم عن عبادة الأصنام ، ومن أوتي الرشدُ لابد أن يكون موقنا بوحدانية الله , متأكدًا منها تمامًا ، قبل أن يُبَلِّغ رسالة ربه (سبحانه وتعالى)

- فقد أراه الله (عز وجل) ملكوت السماوات والأرض قبل أن يقول لوالده : " (أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤)؟ ، وعليه لم تكن هذه الرؤية ، لتحقيق الإيقان الحاصل , وكيف و قد أوتي رشده من قبل !

- إذن كيف نفسر نظره (عليه السلام) إلى الكوكب الآفل حين جنَّ عليه الليل ، وقوله: هَذَا رَبِّي ؟

- إنما كان نظرة إلى الكوكب الآفل حين جنَّ عليه الليل, وقوله" هَذَا رَبِّي " وأيضا إلى القمر البازغ ، وكذا الشمس من بعده, كان ذلك لا لينفي الشك عن نفسه, بل ليعطي الأدلة الكونية التي يقدما للمنكرين من قومه , كما سبق أن ذكرنا – وليقول لهم بعد أن تأكدت له مظاهر الوحدانية: " (يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) [الأنعام] .

وهو قول لم يُقْنِعْ المشركين رغم وضوح الدلالة عليه، فصاح بهم مستنكرا: (أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) [الأنعام] . وقد أكد على ذلك أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومي قائلا : من قال : بأن(الواو) زائدةٌ في هذه الآية جانبه الصواب , بل هو " شطط لا يجد التبرير " (٢٠) .

بل إننا نوقن بأن كل حرف في القران الكريم , وكل لفظ في عباراته ، هو إعجاز فني بياني مقصود لذاته , ولم يكن زائدا كما يدعي البعض ؛ بل إنه يؤدي معنى لا يؤديه إذا أهمل ، أو حذف من اللفظة ، أو العبارة التي ورد فيها. ذلك لأن الزيادة تشير في حقيقتها إلى أن هناك خللاً ، أو عيبًا ، أو وَهنًا وقع في الكلام الذي وردت فيه , وكان يجب اجتنابه واحترازه ؛ حتى يكون الكلام فصيحا بليغا , وهذا يتنافى مع التعبير الالهي الذي جاء في ذروة البلاغة ، وسنام الفصاحة , فأعجز أساطين البلغاء ، وفحول العرب الفصحاء .

وأري أن ما توهمه البعض بأنه زائد في القرآن الكريم ، إذ ليس له موجب نحوي ، هو: قصورٌ في توجيه النصِّ القرآنيّ ، توجيهًا صحيحًا ، يتمشى مع السياق القرآني الذي ورد فيه . وقصورٌ ـ أيضا ـ في وضع القواعد التي قعدوها ؛ لتكون وسيلة إلى فهم القرآن الكريم ، والمحافظة على لغته من الوهن واللحن ، لا أن تكون طعنا فيه ، واتهاما لأنبيائه ؛ بل إن في هذا الزعم اتهاما ـ غير مقصود ـ لفصاحة القرآن وبلاغته ، وهذا لا يجوز إطلاقا على النص الإلهي ، كما نؤكد إن كل حرف ، وكل كلمة من عباراته ، هو بناء متكامل ، ومرتبط ارتباطا وثيقا مع بعضه البعض في السياق الذي ورد فيه ، ولا يجوز أن ننظر إلى حروفه مجردة ، أو إلى كلماتهِ مفردةً ـ أو نفصلها عن السياق ،وإلا اختنقت أنفاس معانيها، وماتت في سياقها ، وفقدت قيمتها المقصودة ، ومعانيها المرادة من حياتها السياقية ، فتصبح جامدة لا حياة لها ، مثل السمكة إذا أخرجت من الماء ([٥٣]) .

(وَلَكِـــــنْ لِيَطْمَـــــئِنَّ قَلْبِي)

قد يقع البعض عند قراءة قوله تعالى من سورة البقرة : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)). قد يقع في سوء فهم لمعناها ، أو يذهب به الشيطان بعيدا عن الحقيقة ، فيظن أن نبي الله إبراهيم (عليه السلام) كان شاكا في قدرة الله (عز وجل) على إحيائه الموتى ، فطلب من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، ليطمئن قلبه .

فالآية في ظاهرها تشعر بأن إبراهيم (عليه السلام) لم يكن مطمئنَّ القلبِ ، لذا قال لرب العزة : " وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي " . فكيف نفسر ذلك ؟ أولا ـ يجب علينا ألا ننظر إلى هذه الآية وحدها ، دون النظر إلى ما قبلها ، وما بعدها من الآيات، أي لا نخرج الآية من سياقها عند تفسيرها : فالآيات التي قبلها تقول : إن إبراهيم (عليه السلام) حاجه النمرود في ربه ، قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ) . فماذا قال إبراهيم(عليه السلم) للنمرود ؟ قالَ إِبْرَاهِيمُ : (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ...(٢٥٨) . إذن فإن إبراهيم (عليه السلام) كان مؤمنا كل الإيمان بأن الله هو الذي يحيي ويميت.

أيضا ـ حينما سأله الله (عز وجل) : (أَوَلَمْ تُؤْمِنْ) فأجاب إبراهيم (عليه السلام) : " بلى " . أي : نعم يا رب ، أنا مؤمن .

ـ ولما كان الإيمان مرحلة أعلى من الإسلام ، كما وضحه لنا القرآن الكريم في سورة الحجرات : (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) .

- ولما كان - أيضا - فوق الإسلام والإيمان درجة أعلى منهما معا ، وهي : الإحسان (وهي درجة المشاهدة المحسوسة ، أو الرؤية البصرية) : أي أن تعبد الله كأنك تراه .

درجات العبادة : [الإسلام] ثم [الإيمان] ثم [الإحسان] .

والإيمان كما نعرف هو : اطمئنان القلب ، وقد علمنا أن قلبَ إبراهيم (عليه السلام) قبل سؤاله هذا - من حواره مع النمرود - كان مطمئنا (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ...(٢٥٨) .

- أراد إبراهيم (عليه السلام) أن يرتقي في العبادة من درجة أعلى إلى درجة أعلى منها ، ينتقل من درجة الاطمئنان القلبي إلى درجة المشاهدة المحسوسة بالعين ، فليس الخبر كالعيان ، أن ينتقل من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان ، قال : (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) .

ثانيا - عندما نعيد التأمل في هذه الآية الكريمة ، ونمعن الفكر فيها مرة أخرى ، نجد أن السؤال وقع من إبراهيم (عليه السلام) عن كيفية إحياء الله الموتى ، ورؤيته لهذه الكيفية، وليس عن إمكانية الله على إحياء الموتى : (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) ، أي أن إبراهيم (عليه السلام) لم يكن شاكًا في قدرة الله (عز وجل) على إحياء الموتى ، فطلب من ربه أن يريه ذلك ليزيل هذا الشك من ذهنه ، بل كان موقنا بقدرة الله في ذلك ، وإنما أحب أن يرى مثالا عمليا ، مشاهدا أمام عينه لكيفية إحياء الله الموتى ، ليزداد إيمانا - كما ذكرنا آنفا - ولذا أراد الله(سبحانه وتعالى) أن ينزه ساحة نبيه إبراهيم (عليه السلام) عن الشك ، الذي قد يتبادر إلى الذهن من قدرة الله على إحياء الموتى ، وأن يجلو اللبس الذي يقذفه الشيطان في نفوس المؤمنين من الطلب العجيب الذي طلبه (عليه السلام) ، فسأل الله (عز وجل) إبراهيم (عليه السلام) : (قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ) ، وأخبرنا عن جوابه فـ (قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) . فأجلى لنا بسؤاله هذا ، ثم جواب إبراهيم عليه حقيقة الأمر . ليفصح لنا أن إبراهيم (عليه السلام) كان مؤمنا بقدرة الله (عز وجل) على إحياء الموتى ، وأنه لم يشك لحظة واحة في ذلك ، وإنما السؤال عن كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه (عليه السلام) ، ويزداد إيمانا على إيمانه بقدرته على إحياء الموتى .

وقد منَّ الله على إبراهيم (عليه السلام) ، وأتم نعمته عليه ، فاستجاب لطلبه ، وأرشده إلى طريقه عملية لكيفية إحياء الموتى ، فقال له : (قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا) [البقرة: ١٦٠] . كما أن السؤال الذي سأله الله لإبراهيم (عليه السلام) - وهو يعلم الإجابة عليه مسبقا (سبحانه السميع العليم) - يسمى في علم البلاغة العربية بـ " تجاهل العارف " وهو أسلوب بديع في المبالغة في توضيح الحقيقة وتقريرها ، وهو أحد الفنون البديعية المعنوية التي استخدمها القرآن الكريم في مواضع متعددة تعبر عن عظمته ، وتفصح عن إعجازه . وروعة أساليبه وبيانه ،وفصاحة ألفاظه ، وبلاغة كلامه ، وتبرهن على أنه ليس بكلام

بشر، وإنما هو كلام رب العالمين ، وقد جاءت في آياته إما : للمبالغة ، أو للذم ، أو للتعظيم، أو التوبيخ ، أو التحقير ، أو التقرير ،أو الإيناس ، أو غير ذلك مما يهدف من وراءه التظاهر بعدم المعرفة ، والعلم لحكمة أرادها الله (عز وجل) . (٥٤) .

***

الطعن في آل بيت النبوة

"ما كان أبو إبراهيم (علية السلام) كافرًا "

من بين جملة الافتراءات على خليل الله إبراهيم (علية السلام) القول بأن أبا الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) كان كافرا ، ومن الذين كانوا يصنعون الأوثان بأيديهم ويعبدونها ... وهذا جهل بين وعدم فهم لنصوص القرآن الكريم ، والأخذ بظاهر النص دون استبطان معناه ومرماه . وقد رُمِيَ بهذه التهمة- أيضا - والدا الحبيب محمد (ﷺ) فقالوا عنهما : أنهما كافران وأنهما في النار- على ما سيأتي في موضعه.وإن مثل هذا القول يؤذي الله ويؤذي رسوله ، وهذا لا يصح أن نقول به ، فقد سُئِلَ القاضي أبو بكر بن العرب ،وهو أحد أئمة المالكية عن رجل قال : إن أبا النبي (ﷺ)في النار ، فأجابه بأنه ملعون ، لأن الله تعلى يقول : (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) [الأحزاب]، ولا أذى أعظم من أن يقال عن أبيه أنه في النار (٥٥) . وقال السهيلي في " الروض الأنف " بعد ذكره الحديث الذي في مسلم ، ما نصه : " وليس لنا نحن أن نقول هذا في أبويه (ﷺ) لقوله : " لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات " ، والله تعالى يقول : (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) . قال وقد روى معمر بن راشد الحديث الذي في مسلم بغير هذا اللفظ ، ورُوِيَ حديثٌ غريب لعله يصح ، ثم ذكر الحديث في إحيائهما " (٥٦) .ونقول :

١ - إن الله (عز وجل) لا يختار نبيا ، أو رسولا يحمل رسالته ، ودعوته إلى الناس إلا إذا كان من صلب طاهر ، لم يعفر جبهته بالسجود لغير الله ، ولم يشرك به أحدا .

٢- فضلا عن أن الصالح لا يأتي إلا من صلب صالح ،وذلك بنص القرآن الكريم ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ...(٢٨) [التوبة] ، فلا يعقل أن يأتي النبي الصالح من المشرك النجس .

٣- بل إن الصالح من الأدنى يصل إلى الأعلى ، قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) [آل عمران]

٤- والصالح من الأعلى يصل إلى الأدنى ، قال تعالى في سورة الكهف : (... وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا (٨٢) .

فقد اعتقد البعض أن المراد من قوله تعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام)في سورة الأنبياء :(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ(٥٢)

- وقوله تعالى من سورة مريم حكاية على لسان إبراهيم (عليه السلام) : (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ".

- وقوله تعالى في سورة الأنعام : " (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

- وقوله تعالى : في نهي إبراهيم (عليه السلام) من الاستغفار لأبيه، في سورة التوبة: (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ". فقد ظن البعض أن المراد من ورود لفظتي : وَإِذْ قَالَ " لِأَبِيهِ " ، و " يَا أَبَتِ " في الآيات السابقة ، هو والد إبراهيم الحقيقي ومن صلبه . وهذا خطأ بين ، وجهل باللغة ، وأساليبها ومراميها ، ومعاني ألفاظها : إذ أن كل لفظة في لغة القرآن الكريم تحتوي على معاني كثيرة ، إما على سبيل الحقيقة ، وإما على سبيل المجاز .

فإن آزر الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، واستغفره له إبراهيم (عليه السلام)، ثم نُهيَ بعد ذلك عن الاستغفار له ، لم يكن والد إبراهيم (عليه السلام) الحقيقي، ومن صلبه ؛ وإنما هو " عَمّــه " إذ أن آباء الأنبياء جميعا لم يكونوا كفارا ؛ بل كانوا مؤمنين من آدم (عليه السلام) إلى نبينا محمد (ﷺ)كما ورد عن جماعة من السلف :

- فقد أخرج ابن أبي حاتم (بسند ضعيف) عن ابن عباس في قوله: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)، قال إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه " آزر " وإنما كان اسمه "تارخ ".

- وأخرج ابن أبي شيبه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طرق(بعضها صحيح) عن مجاهد قال : " ليس آزر أبا لإبراهيم ".

- وأخرج ابن المنذر (بسند صحيح) عن ابن جريج قوله تعالى : " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ " قال : ليس آزر بأبيه ؛ وإنما هو إبراهيم بن تيرخ أو تارخ من شارخ بن ناخور بن فاطم (٥٧) .

- وأخرج من أبى حاتم (بسند صحيح) عن السُّدِيِّ (ت ١٢٧ هـ) أنه قيل له :اسم أب إبراهيم " آزر " ، فقال : بل اسمه " تارخ " فقد كان العرب يطلقون لفظ الأب على العم والجد إطلاقا شائعا ،وإن كان مجازا(٥٨)،وذلك تأدُّبًا معهما وإجلالا لمكانتهما .

- وقد ورد فى القرآن الكريم ما يؤكد ذلك فى سورة البقرة ، قال تعالى: (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣).

- وكذلك في سورة يوسف : (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) فأطلق الله (سبحانه وتعالى) على إسماعيل (عليه السلام) لفظ " أب " مجازًا ، وهو عـمٌ يعقوب (عليه السلام) ، كما أطلق - أيضا - على إبراهيم (عليه السلام) أبي الأنبياء لفظ " الأب " مجازا - أيضا - ، وهو في الحقيقة " جـده " . وقد استخدم القرآن المجاز كثيرا في غير هذا الموضع .

- وقد ذكر السيوطي عن ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس (رضي الله عنهما) ، أنه كان يقول : " الجـدُّ أبٌ " ويتلو : (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣).قال سُمِّيَ العَمَّ أبا .

- وأخرج عن محمد بن كعب القرَظِي قال : الخال والد والعم والد،وتلا هذه الآية . وقد أورد الإمام فخر الدين الراز(٥٩) في كتابه " أسرار التنزيل" ما نصه : " قيل إن آزر لم يكن والدا لابراهيم ، بل كان عمه ، واحتجوا عليه بوجوه منها :

* أن آبا الأنبياء ما كانوا كفارا ويدل عليه وجوه منها قوله تعالى:(الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) [الشعراء] قيل معناه : أنه كان ينقل نوره من ساجد إلى ساجد " . ثم قال : وبهذا التقرير فالآية دالة على أن جميع آباء محمد (صلى الله عليه وسلام) كانوا مسلمين ، وحينئذٍ يجب القطع بأنَّ والد إبراهيم ما كان من الكافرين - إنما ذاك عمـه - أقصى ما في الباب أن تحمل قوله تعالى: (وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) على وجوهٍ أخرى ، وإذا وردت الروايات بالكل ، ولا منافاة بينها ؛ وجب حمل الآية على الكل ، ومتى صح ذلك ثبت أن والد إبراهيم (عليه السلام) ما كان من عبدة الأوثان"

- ثم قال ومما يدل على أن آباء محمد (ﷺ) ما كانوا مشركين ،قوله عليه السلام : " لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين ، إلى أرحام الطاهرات " .

- وقال تعالى :(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)،وجب أن لا يكون أحد من أجداده مشركا" (١).

- وقد ذكر الإمام السيوطي ما يقوي رأى الإمام فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) فقال : " وجد له أدلة قوية ما بين عام ، وخاص : *العام مركب من مقدمتين* :

أحدهما- أنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن كل جد من أجداده (صلي الله عليه وسلم خير أهل قرنه كحديث البخاري : " بعثت من خير قرون بني أدم ، قرنا فقرنا ، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه " .

والثاني _ أنه قد ثبت أن الأرض لم تخل من سبعة مسلمين فصاعدا ، يدفع الله بهم عن أهل الأرض . (أخرج) عبدا الرزاق في (المصنف) ، وابن منذر في " التفسير " بسند صحيح على شرط الشيخين عن على بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، قال :لم يزال على وجه الدهر في الأرض سبعة مسلمون فصاعدًا ، فلولا ذلك لهلكت الأرض ومن عليها - وأخرج الإمام أحمد في" الزهد " , والخلال في " كرامات الأولياء" بسند صحيح على شرط الشيخين ، عن ابن عباس قال: ما خلت الأرض من بعد نوح من سبعة يدفع الله بهم عن أهل الأرض". وإذا قرنت بين هاتين المقدمتين نتج ما قاله الإمام لأنه إن كان كل جدٌ من جملة السبعة المذكورين في زمانه ، فهو المدعى ، وإن كانوا غيرهم لزم أحد الأمرين: إما أن يكون غيرهم خيرا منهم ، وهو باطل ، لمخالفته الحديث الصحيح ، وإما أن يكون خيرا ، وهو على الشرك ، وهو باطل ، بالإجماع. وفى التنزيل : " (وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ...(٢٢١) " فثبت أنهم على التوحيد ليكونوا خير أهل الأرض كل فى زمانه . *وأما الخاص* : فأخرج ابن سعد في " الطبقات " عن ابن عباس قال: ما بين نوح إلى آدم الآباء كانوا على الإسلام .

- وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وابن المنذر ، والبزاز في" مسنده " والحاكم في " المستدرك " وصححه ابن عباس ، قال :كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين ، قال وكذلك هي في قراءة عبد الله كان الناس أمة واحدة ، فاختلفوا .

وفى التنزيل حكاية عن نوح (علية السلام) : (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ...(٢٨) و(سام) ابن نوح مؤمن بنص القرآن ، والإجماع ؛ بل ورد في أثر أنه نبي ، و(ولده) أرفخشد صرح بإيمانه في أثر عن ابن عباس ، أخرجه ابن عبد الحكم في " تاريخ مصر " وفيه أنه أدرك جده نوحا ، ودعا له أن يجعل الله الملك والنبوة في ولده .

- وروى ابن سعد في " الطبقات " من طريقه الكلبي أن الناس مازالوا ببابل ، وهم على الإسلام من عهد نوح (عليه السلام) إلى أن ملكهم " نمرود " فدعاهم إلى عبادة الأوثان ، وفي عهد نمرود " كان إبراهيم (عليه السلام) ، وآذر .

- وأما ذرية إبراهيم (عليه السلام) فقد قال تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى:(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) قال شهادة أن لا إله لا الله ، والتوحيد لا يزال في ذريته ، من يقولها من بعده ، وقال تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصْنَامَ) (٣٥) .

- وأخرج ابن جرير عن مجاهد في الآية ، فاستجاب الله لإبراهيم دعوته في ولده ، فلم يعبد أحدٌ من ولده صنما ، بعد دعوته .

- وأخرج ابن حاتم عن سفيان بن عيينه أنه سئل : هل عبد أحد من ولد إسماعيل الأصنام ؟ قال لا ، ألم تسمع قوله : (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصْنَامَ)قيل فكيف لم يدخل ولد إسحاق، وسائر ولد إبراهيم ؟ قال : لأنه دعا لأهل هذا البلد أن لا يعبدوا الأصنام ، إذ أسكنهم إياه ، فقال: " اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا .ولم يدع لجميع البلدان بذلك ، فقال:(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصْنَامَ) فيه ، وقد خص أهله ، وقال : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ (٣٧)[سورة إبراهيم] .

- وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله تعالى : (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) [إبراهيم] .قال فلن يزال من ذرية إبراهيم ناس على الفطرة يعبدون الله ([٦١]) .

***

أما عن استغفار إبراهيم (عليه السلام) ، ودعائه لوالديه : أبيه ، وأمه ، فقد كان استغفارا لأبيه الحقيقي " تارخ " وليس " آزر " الذي رباه، واحتضنه بعد موت أبيه الحقيقي ، إذ يبدو أن والد إبراهيم (عليه السلام) قد مات ، وهو في سن الطفولة، وربما مات بعد ولادته بقليل ، أو قبل مولده ، شأنه في ذلك شأن المصطفى (ﷺ) لحكمة أرادها الله(عز وجل) .فلم يلحق نبوة إبراهيم ،ولا دعوته، وقد ورد هذا الاستغفار في القرآن الكريم في قوله تعالى [في سورة إبراهيم] : (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠)رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) وعليه يكون المقصود بالدعاء هنا هو " تارخ " والده

الحقيقي ، لا أباه " آزر " والده المجازي . إذ أن هذا الاستغفار جاء بعد هلاك " آزر " عمه بمدة طويلة ،وقد نهاه الله (عز وجل) بعدم الاستغفار له في محكم كتابه : (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤). فقد ترك إبراهيم (عليه السلام) الاستغفار له بعد ما تبين له أنه عدو لله .

- ومما يؤكد ذلك ما أخرجه ابن المنذر في تفسيره (بسند صحيح) عن سليمان بن صُرَد (بضم المهملة وفتح الراء) وهو صحابي جليل ، قتل " بعين الوردة " سنة خمس وستين تقريبا . قال : لما أرادوا أن يلقوا إبراهيم (عليه السلام) في النار جعلوا يجمعون الحطب ، حتى إن كانت العجوز لتجمع الحطب ، فلما أرادوا أن يُلقُوه في النار ، قال : حسبي الله ونعم الوكيل ، فلما ألقوه ، قال الله : (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) [الأنبياء]

فقال عمٌ إبراهيم : " من أجلي دُفِع عنه " فأرسل الله عليه شرارة من النار ، فوقعت على قدمه فأحرقته " ([٦٢])

وإذا تمعنا الفكر في هذا الأثر : نرى أنه ذكر صراحة أن " آزر " هو عمُ إبراهيم (عليه السلام) ، وليس والده الحقيقي ، وإذا أعدنا الكرة مرة أخرى نلحظ أن " آزر " عمه هلك بعد إلقاء إبراهيم (عليه السلام) في النار مباشرة ، وبعد أن ادعى عمه أنه نجي ببركته أو من أجله ، فأراد الله أن يكذب دعواه ، فأرسل عليه شرارة من النار فأهلكته . وعليه يكون استغفار إبراهيم (عليه السلام) لوالده بعد نهيه عن الاستغفار له ، هو استغفار لوالده الحقيقي " تارخ " ، الذي نعتقد أنه توفي قبل رسالته (والله أعلم) وليس لأبيه " آزر " الذي تبرأ منه عندما تبين له أنه مشرك بالله ولم يؤمن .

***

أيضا - نلحظ بعد الاستقراء الجيد لآيات الله (عز وجل) أن القرآن الكريم قد :

١- ذكر صراحة أن أبا إبراهيم هو " آزر " مرة واحدة في قوله تعالى من سورة الأنعام : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وذِكْرُ لفظِ الأبِ صراحة هنا دليل على أن " آزر " ليس والد إبراهيم (عليه السلام) الحقيقي أي: ليس من صلبه ، وإنما هو عمه ، أو أبوه مجازا ، لإزالة اللبس الذي يقع بين ذكر الأب والولد , ولو كان " آزر " والده الحقيقي لما ذكره صراحة بعد قوله : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ) ، ولفهمنا مباشرة مقصود الله (عز وجل) إذ لايوجد أبدًا للمرء أكثر من والد حقيقي واحد ، وإنما يمكن أن يكون له أكثر من أب مجازي ، كأن يكون أبا بالتبني ، والرعاية ، او في منزلة الوالد كـ : العم ، أو الخال ، أو الجد . وقد كانت العرب تطلق ذلك مجازا وتستخدمه ، ومازال العرف العربي حتى الآن يطلق في أريافنا ، وقرانا ، وفي بلدان عربية

كثيرة ، يطلق على الأب ، أو الجد ، أو الخال لفظ الأب ، احترامًا له وتقديرًا ، فيقولون: " أبو يا فلان " ، ويردون : العم ، أو الجد ، أو الخال .

٢ - أيضا - عندما نجمع الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ " الأب" ، أو لفظ " الوالد" نجد القرآن الكريم فرق في استعمالاته بينهما ، فنجده يطلق " الأب " على الوالد الحقيقي ، ويطلقه - أيضا - على الوالد المجازي ، أي : العم ، أو الجد . وكذلك العرب كانت تفعل ذلك .

أما لفظ " الوالد " فلم يطلقه القرآن الكريم إلا على " الوالد الحقيقي" أي أن يكون الابن من صلبه ، نحو ما جاء في قوله تعالى من سورة البقرة : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣).

وقوله تعالى منها أيضا : (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) .

- وفي سورة مريم ، قال تعالى:(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤)

- وقال في حق عيسى(عليه السلام):(وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا(٣٢).

- وقال من سورة الإسراء : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) .

- وقال تعالى في سورة لقمان : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤).

فذكر في هذه الآيات الكريمة لفظ " الوالد " ، ولم يذكر لفظ " الأب " .

- ولم يأت في القرآن الكريم كله لفظ " الأب " بمعنى الأبوة الحقيقية ، إلا في موضعين: الأول - في سورة الكهف ، أثناء الحديث عن الغلام الذي قتله العبد الصالح أمام عيني نبي الله موسى (عليه السلام) ، وقد أنكر موسى (عليه السلام)عليه هذا الصنيع ، وكان سبب قتله كما ذكر العبد الصالح لموسى(عليهما السلام) بعد ذلك مخافة أن يرهق والديه طغيانا وكفرا ، قال تعالى :(وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) .

وكأني برب العزة أراد أن يبين لنا في هذا الموضع أن هذا الغلام ، قد صار بمعصيته ، وعقوقه المتوقعين منه ، إذا كبر وشب عن الطوق - كما هو في علم الله تعالى - صار في منزلة الابن غير الحقيقي لهما ، وكان عملا غير صالح .

والثاني - في سورة يوسف حكاية عن أخوة يوسف غير الأشقاء له،في قوله تعالى : (وَجَآءُوا أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ) [يوسف: ١٦] ، فكأنهم بعقوقهم لوالدهم يعقوب (عليه السلام) وكذبهم عليه ، وحرمانهم له من يوسف (عليه السلام)أعز أبنائه عليه، وشروعهم في قتله خرجوا في هذه اللحظة من أبوته الحقيقية ، الأبوة الصالحة ، أبوة نبي الله ، إلى أبوة أخرى،وفي الحديث الصحيح عَن ابْن عَبَّاس ،وعائشة ، وأبي هريرة(رضي الله عنهما) عن رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ):" لاَ يَزْنِى العَبْدُ حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَقْتُلُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ".(٦٣) أي يذهب عنه الإيمان لحظة الإثم، ويعود إليه بالتوبة، والندم ،والعزم على عدم الرجوع إلى المعصية مرة أخرى. قالَ عِكْرِمَةُ : قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ : كَيْفَ يُنْزَعُ الإِيمَانُ مِنْهُ ؟ قَالَ : هَكَذَا ، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ، ثُمَّ أَخْرَجَهَا ، فَإِنْ تَابَ عَادَ إِلَيْهِ هَكَذَا ، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ (٦٤).

- ونلحظ هذا المعنى في موضع آخر من مواضع القرآن الكريم عند الحديث عن ابن نوح (عليه السلام) الذي نري أنه ليس - أيضا - من صلب نوح(عليه السلام) ، وإنما هو ابن له بالتبني ، أي ابن لزوجه من رجل آخر قبل زواج نوح(عليه السلام) منها ، والتي كانت كما ذكر القرآن أنها من الغابرين ، قال تعالى في شأنه : (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦)، فقال تعالى " إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ " أو " إِنَّهُ عَمَلَ غَيْرِ صَالِحٍ " في بعض القراءات ، ، وسيأتي الحديث عنه في موضعه .

_ أما إطلاق لفظ " الأب " على " الوالد " المجازي فجاء في القرآن في قوله تعالى : " (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) . فأطلق لفظ الأب على إسماعيل مجازا ، إذ هو في الحقيقة عمه، وعلى إبراهيم وهو في الحقيقة جده .

_ وكذلك جاء لفظ الأب" قد يحمل المعنيين : الحقيقي ، والمجازي . في قوله تعالى في شأن الغلامين اليتيمين في المدينة صاحبي الجدار قال تعالى : (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢). فيحتمل أن يكون " أبوهما " القريب الذي هما من صلبه ، ويحتمل " أبوهما " جدهما الأعلى " الجد السابع " كما تقول بعض كتب التفاسير .

وعليه فيكون المقصود من لفظ " الأب " في الآيات القرآنية الأخرى التي وردت فيها ، هو الأب المجازي لإبراهيم (عليه السلام) بما فيه الآية الكريمة التي ورد فيه ذكره صراحة وهي قوله تعالى : "(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤)[الأنعام] .

وبذلك يكون أيضا ـ ذكر الأب في جميع الآيات الأخرى ، والتي يدعو فيها إبراهيم (عليه السلام) أباه وقومه إلى نبذ الأصنام ، وعبادة الواحد الأحد ـ المقصود به هو " آزر " عم إبراهيم (عليه السلام) أبو المجازي ، الذي قام باحتضانه ورعايته بعد موت والده الحقيقي، فحفظ له المعروف ، وحرص على نجاته من عذاب الله . وقد استخدم معه الأسلوب الهادئ الرقيق في الدعوة ، فكان يناديه دائما بـ " يا أبتي ... يا أبتي ... " في الخطاب القرآني .

وبعد ، فإنه لا يجمل بنا أن نقول أن " آزر " الكافر ، هو الأب الحقيقي لنبي الله ابراهيم (عليه السلام) ، أبو الأنبياء جميعا ، لإشراكه بالله ، وعناده في الحق ، وعكوفه على صناعة الأصنام وعبادتها ، فإن مثل هذه الافتراءات قصد إلى إثارتها ، وبثها في أذهان المسلمين ، وعمل على ذيوعها بينهم ، هم جماعة اليهود ، والزنادقة، والمنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، وهم يريدون من وراء ذلك تلطيخ ساحة أنبياء الله ، وآل بيتهم ، حتى لا يكونوا نشازا في المجتمع إذا ما ارتكبوا هم أنفسهم المعاصي والذنوب ، ولتكون وسيلة لتبرير أخطائهم وأفعالهم الذميمة أمام الناس .

الحواشي والهوامش:

١- روى مسلم هذه العبارة في مقدمة صحيحه عن محمد بن يحيى بن سعيد القطان بهذا اللفظ , وبلفظ (الصالحين) بدل (أهل الخير) , ولم يذكر ابن عباس في روايته ، وأوله : " بأن الكذب يجري على لسانهم ، ولا يتعمدون الكذب ، أي يروون الأحاديث الموضوعة ولا يعلمون لحسن ظنهم ، وعدم نقدهم ". [راجع : شرح صحيح مسلم بشرح النووي ، ج١ ، ص ٨٤ ، طبعة أولى ، دار المنار بالقاهرة ، سنة ١٩٩٧م .].

٢ - ا نظر :محمود أبو رية : أضواء على السنة المحمدية (فصل الإسرائيليات): ص ١٤٥ وما بعدها.طبعة ٣ , دار المعارف بمصر.

٣ - انظر : محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده , ح ٢ , ص ٣٤٧ ، المنار ،سنة ١٣٤٤هـ

٤ - نفس المصدر السابق : ح ٢ ، ص ٥١٦ .

٥ - نفس المصدر : ح ٢ ، ص ٥٥٩ .

٦ - نفس المصدر :ح ٢ ، ص ٦٤٣ . أيضا محمود أبو رية : المصدر السابق ، ص ٢٨٩ وما بعدها .

٧ - انظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ،ح ١٥ ، ص ٩٢. مطبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٣٨٠هـ ، ١٩٦٠ م .

٨ - محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): ح ١١ ، ص ٦٠-٦١ . طبعة مكتبة القاهرة بميدان الأزهر .

٩ - القاسمي : تفسير القاسمي للقران الكريم ،ح ٩ ، ص ٣٠٦٠ .

١٠ - السيرة النبوية لابن هشام: ح ١ ص ٢٩٩، مطبعة الحلبي ، تحقيق مصطفى الحلبي وآخرين ، سنة ١٣٥٥هـ .

١١ - الحديث متفق عليه ، رواه البخاري في صحيحه , باب بدء الوحي حديث [٧].ومسلم في كتاب الجهاد والسير ، رقم [١٧٧٣].

١٢ - الحديث رواه الترمذي في سننه ج٤، ص٣٤٩ [١٩٧٣] قال أبو عيسى : " هذا حديث حسن " ون وابن حبان في صحيحه ج١٣ ص ٤٥ [٥٧٣٦] ، والبيهقي في السنن الكبرى ج١٠ص ١٩٦[٢٠٦١٠] رواه أحمد في المسند ج٦، ص ١٢٥[٢٥٢٢٤], وانظر الفتح الرباني , للساعاتي كتاب آفات اللسان , باب الترهيب من الكذب ح ٩ , ص ٢٦٤. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ج٥ص ٨٠ [٢٠٥٢]،طبعة مكتبة المعارف ، المملكة السعودية .

١٣ - رواه مالك في الموطأ ج٢ ص ٩٩٠ [١٧٩٥] موزقوفا على ابن مسعود ، و ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ج١ ص٥٤ [١٤٧] .

١٤ - متفق عليه، انظر البخاري , كتاب الآداب , حديث (٦٠٩٤)، ومسلم , كتاب البر والصلة باب قبح الكذب ، حديث (٢٦٠٧)

١٥ - رواه البخاري في صحيحهج٦ص٢٧٤٢[٧١٠٣]،وص ٢٦٧٩[٦٩٢٨]، ج١٣ص٥١٦[٧٥٤٢]، ٧٥٤٢] ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠،ص ١٦٣[٢٠٤٠٢].

١٦- الطبرسي (أبو على الفضل بن الحسن الطبرسي) : مجمع البيان في تفسير القرآن، مجلد ٥ ، ج٣٢ ، ص ٦٩ .

١٧- راجع كتابنا: من روائع البديع في القرءان الكريم (فصل التورية) ص :١٢١ وما بعدها ، مكتبة الآداب بالقاهرة ، سنة ٢٠٠١ م .

١٨- كانت قناتي لا تلين لغامز فألانها الإصباح والإمساء

فدعوت ربي بالسلامة جاهدا ليصحني فإذا السلامة داء

- والشاعر هو : لبيد بن ربيعه العامري, والقناة : الرمح , استعارها لاقامته أو قوته على طريق التصريح , والليونة والغمز ؛ ترشيح , والغمزي: الحبى باليد . ويجوز أن الاستعارة تمثيلية في المركب . يصف قوته أيام الشباب , ثم ضعف حال المشيب بتتابع الأزمان عليه , وأنه تطلب فسحة الأجل , فكانت سبب اضمحلاله (راجع الكشاف ح ٤ ص ٤٩ العاشر).

١٩ - الكشاف : ح ٤ ، ص ٤٩ .

٢٠- ينظر : تفسير القاسمي ، ج١٤ ، ص٣٧ (سورة الصافات) .

٢١- البيضاوي : أنوار التنويل وأسرار التأويل ٢٨ ص ٢٣٥ ، ط٢ الحلبي .

٢٢- الطبري : جامع البيان ح ١٥ ص ٤٠ - ط ٢ الحلبي سنة ١٩٥٤

٢٣- الزمخشري : الكشاف ح ٤ ص ١٢٤ ، طبعة دار الكتاب العربي ، تحقيق مصطفى حسن أحمد

٢٤ . راجع الفراء : معاني القرآن , ح ٢ ص ٢٠٦-٢٠٧ , طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر , مطابع سبل العرب , تحقيق محمد علي البخاري , ويقصد بقال بعض الناس محمد بن السميقع النيسابوري .

٢٥ . نفس الصدر و الصفحة .

٢٦ . نفس الصدر و الصفحة .

٢٧ - راجع كتابنا : من روائع البديع في القرآن الكريم , فصل المحسنات المعنوية , (الأسلوب الحكيم) ,ص ١٣٩ وما بعدها .

٢٨ ـ المصدر السابق : نفس الصفحة .
٢٨ ـ ينظر : أحمد مصطفى المراغي : تفسير المراغي ، ج١ ، ص ٤٨ ، مطبعة البابي الحلبي ، ١٩٦٥ م .
٢٩ ـ المراغي : نفس المصدر ، ح١٦ ، ص ٤٨ .
٣٠ ـ البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ح٢ ، ص٦٠ ، ط١ ، مطبعة البابي الحلبي بمصر .
٣١ ـ انظر القرطبي : تفسير القرطبي, ح١١ ص٢٩٩-٣٠٠ .
٣٢ ـ القرطبي : ح ١١ ، ص ٣٠١- ٣٠٢ .
٣٣- محمود الألوس: رُوح المعاني في تفسير القرآن ، ص٦٠-٦١ ، المطبعة المنيرية بالقاهرة .
٣٤- الكشاف : ح ٣ ص ٣١٩ - ٣٢٠ .
٣٥ ـ راجع : كتابنا المصطفى في الصلاة على النبي المصطفى ، ص ٢١ وما بعدها .
٣٦- الزمخشري : الكشاف : ج٢ ، ص ٤٠٢ .
٣٧- دكتور عبد الحليم محمود : القرآن والنبي (ﷺ) ص ١٦٠-١٦١ ، طبعة أولى . دار الكتب الحديثة بمصر
٣٨ ـ دكتور عبد الحليم: نفس المصدر ، ص ١٦٠-١٦١ .
٣٩- والحديث في البخاري باب قوله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا) [النساء :١٢٥] رقم الحديث[٢١٠٤]
٤٠ ـ ينظر : كتابنا : من روائع البديع في القرآن الكريم ، (بحث التورية) .
٤١ ـ الحديث الأول رواه مسلم في صحيحه ج١ص١٨٦[١٩٤] ، وابن حبان في صحيحه ج١٤ص٣٨٤[٦٤٦٥] ، أما الثاني فهو متفق عليه : رواه البخاري ج٥ص١٩٥٦[٤٧٩٦] ، ومسلم ح٤ص١٨٤٠[٢٣٧١] . .
٤٢ ـ انظر القرطبي: ح١١ ص ٣٠١. دار الكتاب العربي ، دار الكتب بالرياض ، تحقيق هشام سمير البخاري سنة ١٤٢٣هـ . .
٤٣ ـ القرطبي:ح ٧ ص ٢٥.
٤٤ ـ السابق : ج٧ ص ٢٥.
٤٥ ـ نفسه : ج٧ ص ٢٥-٢٦.
٤٦ ـ نفسه : ح ٧ ص ٢٦.
٤٧ ـ نفسه : ح٧ , ص٢٦.
٤٨ ـ . القرطبي :ح٧ , ص٢٥.

٤٩ - رَفوْبي : أي : اسكنوني من الرعب .
٥٠ - السابق ج٧ , ٢٦- ٢٧ .
٥١- راجع الكشاف : تفسير الآيات" فلما جن عليه الليل رءا كوكبا قال هذا ربي ..." الآيات ٧٦:٧٩ من سورة الأنعام.
٥٢.- راجع : مؤلفه : البيان القرآني ص ٢٤٨ ، وما بعدها، طبعة الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة .
٥٣ - راجع بحثنا: نهايات الآيات القرآنية بين إعجاز المعنى وروعة الموسيقا ، طبعة الآداب بالقاهرة ، ٢٠٠٦ م .
٥٤ - راجع كتابنا : من روائع البديع في القرآن الكريم ، ص ١٥٠ وما بعدها .
٥٥ - ينظر السيوطى : رسالته " السبل الجلية في الآباء العلية "ص١٦ ، مطبعة المدني، تحقيق حسين محمد مخلوف ، سنة ١٩٦٥.
٥٦- نفس المصدر السابق : ص ١٦ ، ١٧ .
٥٧- ينظر رسائل جلال الدين السيوطي في تحقيق نجاة أبوي المصطفى (ﷺ) ، صفحة ٢٧ .
٥٨ - نفس المصدر ، ص ٢٨ .
٥٩ - وهو كما يقول عنه الإمام السيوطي : إمام أهل السنة في زمانه ، والقائم بالرد على الفرق المبتدعة في وقته ، والناصر لمذهب الأشاعرة في عصره ، وهو العالم المبعوث على رأس المائة السابعة ليجدد لهذه الأمة أمر دينها ، وناهيك به إمامة وجلالة .
٦٠ - المصدر السابق : ص ١٩ .
٦١ - راجع السيوطي : رسالة السبل الجلية في الآباء العلية " ص ١٠ ، وما بعدها ، مطبعة مدني ، سنة ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م ، تحقيق حسنين محمد مخلوف .
٦٢ السيوطي : رسالة مسالك الحنفا في والدي المصطفى (ﷺ) ، ص ٢٨ .
٦٣- انظر :شرح صحيح البخارى - لابن بطال القرطبي ،ج٧،الطبعة الثانية ، مكتبة الرشد بالرياض ،سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م ،تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم ، ص : ٤٢٨.